العرب

في العصر الجاهلي

الدكتور ديزيره سقال

دار الصداقة العربية
بيروت

العرب
في العصر الجاهلي

بيروت لبنان هاتف: ٨٣٦٩٠٤ ص ب ٧١٧١ / ١١٣
الطبعة الأولى ١٩٩٥

الفهرس

الفصل الخامس: الامارات على التخوم

الفصل السادس: الشعر في الجاهلية

الفصل السابع: مبحث في الوقوف على الاطلال

للمؤلف :

١ ـ في الشعر :

١ ـ رؤيا لتاريخ أبي عبدالله ـ الدار الصحفية العربية .

٢ ـ كتاب الشاهد ويليه كتاب ملوك الطوائف ـ منشورات ميريم .

٣ ـ كتاب اسماعيل ويليه كتاب بابل ـ منشورات ميريم .

٤ ـ كتاب العاشق ـ منشورات ميريم .

٥ ـ تجليات اللون ـ دار الحداثة .

٢ ـ في الدراسات النقدية :

١ ـ بحوث اسلامية ـ منشورات ميريم .

٢ ـ الصرف وعلم الأصوات ـ منشورات ميريم .

٣ ـ حركة الحادثة ـ منشورات ميريم .

٤ ـ الأرض الخراب والشعر العربي الحديث ـ منشورات ميريم .

٥ ـ الكتابة والخلق الفني ـ دار الفكر اللبناني .

٦ ـ من الصورة إلى الفضاء الشعري ـ دار الفكر اللبناني .

٧ ـ بحوث في الفلسفة ـ دار الفكر اللبناني .

٣ ـ الكتب المدرسية المشتركة :

ـ الوافي في القواعد ـ دار الفكر اللبناني .

مقدمة

هذاكتاب «العرب في العصر الجاهلي» الذي تناولنا فيه بعض المسائل الحضارية والأدبية في العصر الجاهلي، وقسمناه سبعةَ فصول. تناولنا في الفصل الأول بلاد العرب وحيوانها، أي البيئة الطبيعية التي كانت مهد الحضارة العربية؛ وتناولنا في الفصل الثاني أصل العرب، فقسمناهم إلى عرب عاربة هي القبائل البائدة ودرسنا ممالكهم، وإلى عرب متعرّبة هم عرب الجنوب الذين درسنا بعض ممالكهم وحضارتهم، وإلى عرب مستعربة. وتناولنا في الفصل الثالث نشأة اللغة العربية مستعرضين بعض النقوش التي وقع عليها الباحثون، وجذور اللغة العربية السامية. وتناولنا في الفصل الرابع بعض الأمور التي تتعلق بالعصر الجاهلي، كالنفسية العربية، وقبائل العرب، وطبقات المجتمع، والشيم العربية، والمرأة ومكانتها في العصر الجاهلي، والغزو والثأر. وتناولنا في الفصل الخامس الإمارات على التخوم: إمارة الغساسنة، وإمارة المناذرة، وإمارة كندة. وتناولنا في الفصل السادس الشعر في العصر الجاهلي، فدرسنا أنواعه وأصله وعلاقة الشاعر بالكهانة والعرافة، ثم المعلّقات. وتناولنا في الفصل السابع الوقوف على الأطلال، حيث درسنا مدلوله وبعض النماذج الشعرية.

نرجو ان نكون قد وفّقنا في هذه الدراسة، إلى إيضاح ما نريد للقارىء من حضارة تعتبر من جوهر الحضارات السامية القديمة التي عرفتها المنطقة عبر التاريخ.

الفصل الأول:

بلاد العرب وحيوانها

١ - بلاد العرب:

بلاد العرب القديمة كبيرة جداً، شاسعة، تعادل تقريباً ثلث الولايات المتحدة، أو ربع أوروبة[١]، قديمة جيولوجيّاً، تقع في جنوب غربي آسية - وهي منطقة تعددت فيها الشعوب، وتعتبر «مهد الجنس السامي». أما مساحتها فحوالي ربع مليون ميل مربع.

وكانت هذه البلاد، في الدور الجوراسي يفصلها عن الهند وبلاد فارس المحيط الهندي، والخليج الفارسي العربي[٢]. ثم ما لبثت أن فصلت عن شمال أفريقية عندما ظهر البحر الأحمر، في الطور الثالث، فارتفعت سلسلة الجبال التي تسمى جبال «السراة»[٣]. وامتدت أمام هذه السلسلة سهول «تِهامة». أما القسم الثاني، فيدعى «الحجاز». وبقرب هذه المنطقة الجبلية تقع «الحرة»، وهي أرض رسوبية أحدثتها حمم البراكين.

---

(١) فيليب حتي وادوارد جرجي وجبرائيل جبور،. تاريخ العرب (مطول)، دار الكشاف، ط ٤، ١٩٦٥، ١/١.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب: منير أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط ١٠ ١٩٨٤، ص ١٧.

(٣) الموضع نفسه.

ويبرز نتوءان جبليان باتجاه الشرق ينفذان إلى سهول شمال المدينة، ويدعيان قديماً جبلا «أجأ» و«سلمى»، واسمهما اليوم جبل «شمّر» وهو يخترق بادية الشام حتى مستنقعات دجلة شرقاً والنجاد الكسيّة غرباً، ويؤلفان جنوباً النجاد الصحراوية الكبرى(١).

ويفصل نجد عن آكام عمان «الربع الخالي»، وهو صحراء شاسعة جداً، قليلة الأودية. وأهم أوديتها وادي «الدواسر» جنوباً. وتقع فيها بعض الآبار التي تساعد على زراعة النخيل.

والمنطقة الجنوبية هي المنطقة الوحيدة التي تصلح للزراعة الرابحة في مواسم الرياح الصحراوية العاتية. أما المناطق الشمالية ـ باستثناء الواحات ـ فلا تكاد تقدم للسكان شيئاً يذكر.

تُسمّى هذه البلاد «شبه جزيرة العرب»، وذلك لأن المياه تحيط بها من الجنوب والغرب والشرق.

أما جغرافيّو الرومان، فقد قسمّوها إلى ثلاثة أقسام(٢):

١ ـ **العربية الصحرواية**: وهي البادية الشمالية (كما يفهم من كلامهم). وتقع مملكة «تدمر» في شمالها.

٢ ـ **العربية الصخرية**: وتشمل شبه جزيرة «سيناء» ومرتفعات شمال «الحجاز» المتصلة بها، وشمال «البحر الميت». وهنا أقيمت مملكة الانباط.

---

(١) الموضع نفسه.

(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط ٨، ص ١٧. وفيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٥٦ ـ ٥٧.

٣ ـ **العربية السعيدة**: وهي تشمل جنوب الجزيرة وبطنها[١]. وهنا أقيمت مملكة عرب الجنوب اليمنيين ـ مملكة المعينيين والسبئيين والحميريين، وغيرها من ممالك القحطانيين العرب.

وكان العرب يزيدون في مساحة جزيرتهم وحدودها «سيناء» و «فلسطين» و «سورية»[٢]. أما إذا أردنا بجزيرة العرب المساحة التي سكنها هذا الشعب، فسوف نرى أنها كانت تختلف باختلاف عصورهم وفتوحاتهم؛ فقد نزلوا بين النيل والبحر الأحمر في الجاهلية القديمة عهد الفراعنة[٣]، على سبيل المثل. وقد اختلفت هذه التخوم فيما بعد كثيراً.

٢ ـ حيوانها:

عرف العرب أنواعاً متعددة من الحيوانات كالأسد والضبع والذئب والفهد والثعلب والنمر والضَبّ، وغيرها من الحيوانات المفترسة، وعرفوا القردة ـ وما زال كثير منها في اليمن حتى أيامنا هذه[٤] ـ والطيور الكواسر، وغيرها من الطير كالهدهد والعندليب والحمام.

واعتمدوا كثيراً على الحيوانات الداجنة كالحمير والبغال والكلاب. ويقال إن البغال أدخلت إلى جزيرة العرب من مصر بعد الهجرة[٥]. ولعل أهم هذه الحيوانات الداجنة كلها الجمال؛ فهي سفينة الصحراء، وعصب الحياة بالنسبة إلى العربي، لأنها تستطيع السير بسهولة في رمال الصحراء

---

(١) الموضع الثاني نفسه.
(٢) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٦، ص ٣٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٩.
(٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٢٤.
(٥) الموضع نفسه.

وقيظها، وتحتمل الجفاف. وقد ذكر الثعالبي (مات ١٠٣٨) عبارة نقلها عن المبرد (مات ٨٣٠) تظهر لنا أهمية الجمال والبعير بالنسبة إلى حياة الجاهلي، قال: «البَكر بمنزلة الفتى، والقلوص بمنزلة الجارية، والجمل بمنزلة الرجل، والناقة بمنزلة المرأة، والبعير بمنزلة الانسان[1]». وإذا راجعت كتاب الثعالبي وجدت حشداً هائلاً من أسماء الابل والبعير والنوق[2]، ما يدل على اهتمام العربي الكبير بها.

وكما يبدو، انقرض النمر والاسد والفهد من شبه الجزيرة[3]. أما الخيل، فإن تاريخ دخولها إلى هذه المنطقة كان متأخراً. وقد نقله من «سورية» إلى «مصر» الهكسوس (الملوك الرعاة)[4]، ثم انتقل إلى اليونان وغيرها. ويعتبر الكحيلان من أحسن الخيول العربية. أما اقتناء هذه الخيول فقد كان مقتصراً على الأثرياء نظراً لما تحتاج إليه هذه الحيوانات من العناية والطعام، ما لم يكن للبدو من غير الأغنياء طاقة عليه. وقد اهتم العرب بخصال الخيل وطباعها وعيوبها وغير ذلك مما ذكره ابن قتيبة[5] (٨٢٨ ـ ٨٨٩).

---

(١) الثعالبي، فقه اللغة، دار مكتبة الحياة، ١٩٠٠، ص ٢٠.

(٢) الموضع نفسه، فصل في ترتيب سمن الناقة (٤١) ـ فصل في هزال البعير (٤٢) ـ فصل في ألوان الابل (٥٤) ـ فصل في سمات الابل (٥٨) ـ فصل في ترتيب البعير (٦٢) ـ فصل في فحول الابل وأوصافها (١٠٦) ـ فصل في أوصاف النوق (١٠٧) ـ فصل في أوصافها في اللين (١٠٧) ـ فصل في سائر أوصافها (١٠٨) ـ فصل في أشكال الجمل (١٢٣) ـ فصل في تفصيل ضروب سير الابل (١٢٦) ـ فصل في ترتيب سير الابل (١٢٧)، وغير ذلك في مواضع متفرقة من الكتاب.

(٣) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٢٣.

(٤) الموضع نفسه.

(٥) راجع: ابن قتيبة، ادب الكاتب، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ٤، ١٩٦٣، ص ٨٧ حتى ١١٤.

كما كان الكلب من الحيوانات المهمة بالنسبة إلى العربي ـ ولا سيما كلب الحراسة. وإذا راجعت كتاب الحيوان للجاحظ (٧٧٥ ـ ٨٨٦) وجدته يعقد له فصولاً كثيرة في عيوبه ومثالبه وشؤونه[(١)]، وكذلك في الحمام[(٢)].

واكتظ الشعر الجاهلي بأنواع الحيوان، فأكثر الشعراء الجاهليون من تصويره. فهذا الحارث بن حِلّزة (مات ٥٧٢) يقول واصفاً ناقته:

بِـــزَفُـــوفٍ كـــأنّهـــا هَقْلـــةٌ أُمٌّ
رِئـــالٍ دَوِيَّـــةٌ سَقْفَـــاءُ
آنَسَـــتْ نبْـــأَةً وأفـــزعهـــا القنـ
اص عصـــراً وقـــد دنـــا الإمْســـاءُ
فتَـــرى خَلْفَهـــا مـــن الـــرَّجْـــعِ والـــوقْـ
ـــفِ منينـــاً كـــأنـــه إهبـــاءُ
وطِـــراقـــاً مـــن خلفهـــنّ طِـــراقٌ
ســـاقطـــاتٌ ألْـــوَت بهـــا الصحـــراءُ[(٣)]

وهذا امرؤ القيس (٩٤٢ ـ ٥٥٢) يقول واصفاً جواده:

دَريـــرٍ كَخُـــذْروفِ الـــوليـــدِ أَمَـــرَّهُ
تتـــابُـــعُ كفيّـــه بخيـــطٍ مـــوصَّـــلِ

---

(١) راجع مثلاً: الجاحظ، كتاب الحيوان، دار صعب، ط ٢، ١٩٧٨، ١/ ١٣٥ (معائب الكلاب ومثالبها، و ٢/ ٢٥٤ (مفاخر الكلب) و ٢/ ٢٥٧ (باب آخر في الكلب وشأنه).

(٢) المصدر نفسه، ٣/ ٤٤٩ (ذكر الحمال) و ٣/ ٤٨٠ (كرم الحمام) و ٣/ ٤٩١ (باب مساوىء الحمام) وسواها.

(٣) الزوزني، شرح المعلقات السبع، دار الجيل، ومكتبة المحتسب ـ عمان، ط ٢، ١٩٧٢ ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

لـــهُ أيطَـــلا ظَبْـــيٍ وســـاقـــا نعـــامـــةٍ
وإرخـــاءُ سِـــرْحـــانٍ وتقـــريـــبُ تَتْفُـــلِ[1]

وهذا الشنفرى (مات في أوائل القرن السادس) يقول ذاكراً الوحوش:

ولـــي دُونَكُـــم أَهْلُـــون: سِيـــدٌ عَمَلَّـــسٌ
وَأَرْقَـــطُ زُهْلُـــولٌ وَعَـــرفَـــاءُ جَيْـــألُ[2]

ولا تخلو معلقة من المعلقات من ذكر الحيوان وتصويره، بل لا تكاد تخلو قصيدة جاهلية منه.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٤ ـ ٤٥.
(٢) إيليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، بإشراف: خليل حاوي، شركة خياط، ١٩٧٤، ١/ ٦٥.

الفصل الثاني: العرب

١ـ العرب وأصلهم:

ذهب فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب إلى أن العرب ساميو الأصل. وهم ـ استناداً إلى خريطتهم اللغوية ـ أكاديون (بابليون نسبوا إلى عاصمتهم أكاد)، احتلوا وادي الرافدين قبل سنة ٢٥٠٠ ق.م.، ثم أشوريون وكلدان. ثم سكن المنطقة التي تدعى بلاد الشام الأموريون والكنعانيون. ولما كان عام ١٥٠٠ ق.م.، استقر الآراميون في منطقة الشام، والعبرانيون في فلسطين، تربطهم أواصر قربى شديدة، ومن أهمها أواصر قربى لغوية(١). وكانت هجرات الشعوب منذ حوالى عام ٣٥٠٠ ق.م. نحو الشمال، فاستقر بعد الهجرة الأولى بعض الساميين مع الحاميين بمصر(٢)، فظهر الفراعنة، ومن يسمون «مينوساتي» أو «هيكسوس» أي الملوك الرعاة(٣). ثم هاجرت موجة أخرى، واستقرت في وادي الرافدين حوالي الألف الرابع قبل الميلاد، فاختلطوا مع السومريين وظهر نتيجة اختلاطهم الشعب البابلي. ثم، في الألف الثالث ق.م. كانت هجرة أخرى للأموريين نحو الهلال الخصيب، فظهر الكنعانيون (ولا سيما بفلسطين: ويرى بعضهم أن سكنى الكنعانيين بفلسطين كانت قبل

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ٩/١.

(٢) المرجع نفسه، ١١/١.

(٣) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، دار العربي (دمشق)، ط ٤، ١٩٧، ص ١٢٧.

ذلك[1]). وقد سمى الاغريق سكان الساحل منهم الفينيقيين[2]، على اسم المدن الساحلية البحرية التي استوطنوها في سورية[3]. ثم تسرب العبرانيون إلى جنوب الشام والآراميون إلى سهل البقاع، وكانوا أول الدعاة إلى التوحيد الديني (وحدانية الله)[4]. ثم نزل الانباط حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. شمال شبه جزيرة سيناء، وتأثرت حضارتهم بالرومان. وفي القرن السابع الميلادي، بدأت الهجرات الإسلامية. وقد ذكر كل ذلك شوقي ضيف في كتابة «العصر الجاهلي[5]». وكانت للآراميين أهمية تجارية كبيرة، إذ إن قوافلهم بلغت الشام وما بين النهرين، وآسية الصغرى، ملتقية بقوافل اليمن والثموديين من الحجازيين. وكذلك ظلت للآراميين أهميتهم التجارية بعد سقوط دولتهم[6]، كما أخذوا عن الفينيقيين حروفهم الهجائية. ويزيد شوقي ضيف موجة أخرى نزحت إلى الشمال، هي موجة الأحباش في القرن الثاني ق.م.، اعتنق حكامها المسيحية، وسقطت دولتهم (او مستعمرتهم) سنة ٥٢٥ م. ـ وسوف نأتي على ذكرها.

ويتوزع العرب، على ثلاثة أقسام: عرب عاربة أو عرباء، وعرب متعربة، وعرب مستعربة.

أ ـ العرب العاربة:

نقل صاحب «المزهر» أنهم تسع قبائل من أبناء إرم بن سام بن نوح،

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٦.
(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/١١.
(٣) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ٥٩.
(٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/١٢.
(٥) راجع: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٢٢ حتى ٢٦.
(٦) المرجع نفسه، ص ٢٥.

هي: عاد وثمود وأميم وعبيل وطسم وجديس وعمليق وجرهم ووبار[١].
وذكر ابن دريد (٨٣٧ ـ ٩٣٣) في «الجمهرة» انهم تسع قبائل: عاد وثمود وعمليق وطسم وجديس وأميم وجاسم، وجميعها أمم منقرضة، إلا بقايا[٢]. وذكر أحمد الهاشمي أن أشهر قبائلهم: طسم وجديس وعاد وثمود وعمليق وعبد ضخم وهي العرب البائدة[٣]. وذهب جرجي زيدان إلى انهم: عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس واميم وجرهم الأولى وحضرموت ومن ينتمي إليهم[٤].

وعلى العموم، فإن جميع هؤلاء يسمون العرب البائدة، لأن قبائلهم بادت واضمحلت ولم يبق منهم إلا فلول انصهرت في القبائل الأخرى.

وكانت لهؤلاء العرب ممالك وأمم امتدت إلى الشام؛ وكانت لهم قصور وأبنية مختلفة ومدن، ومعظمهم شماليون. يقول ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦): «وكان لهذه الأمم ملوك ودول في جزيرة العرب، وامتد ملكهم فيها إلى الشام ومصر في شعوب منهم، ويقال إنهم انتقلوا إلى جزيرة بالقرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام، فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين. ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وآطام وقصور، إلى أن غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان[٥]». وذكر هذا المؤرخ انهم ملكوا في العراق

---

(١) السيوطي، المزهر، طبعة الحلبي، مجهول التاريخ، ١/٣١.
(٢) الموضع نفسه.
(٣) أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، مؤسسة المعارف، مجهول الطبعة والتاريخ، ٢/٢.
(٤) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام ص ٥٣.
(٥) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، طبعة بولاق، ١/٢٨.

أيضاً: «إن قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق[1]».

وكان هؤلاء العرب قسمين: الأول من نسل لاوذ بن سام، وهو أخو إرم رأس الآراميين، والباقون من نسل إرم، منهم آراميون من ابناء إرم بن سام. وقيل إن هؤلاء العرب جميعاً ملكوا في العراق (بابل)، ثم نزحوا إلى جزيرة العرب[2]. وتؤكد النقوش التي عثر عليها هناك ذلك.

* **العمالقة**: هؤلاء هم قدماء العرب من أهالي سكان الحجاز. وقد ذهب جرجي زيدان إلى أن اسمهم منحوت من اسم قبيلة عربية سكنت شكال العقبة. على الأرجح، حيث كان العماليق؛ واسمها بالبابلية «ماليق». ثم أضاف اليهود لفظة «عم» ـ أي شعب ـ فأصبحت «عم ماليق»، ولبثت اللفظة أن صارت مع الزمن «عماليق» و «عمالقة»، وأطلقت على طائفة كبار العرب[3].

وانطلاقاً من نسب العمالقة إلى لاوذ أخي إرم كما ذكرنا، سنذكر مملكتين لهما: مملكتهم في العراق، ومملكتهم في مصر.

١ ـ **مملكتهم في العراق**: لعل أول من ذكر ملك العرب في العراق بروسوس اليوناني (القرن ٤ ق.م.). فقد وضع هذا العلامة جدولاً للدول التي حكمت بلاد ما بين النهرين بالتتالي[4]، وكان جدوله موضوع نقاش شديد بين العلماء. وفي ما يلي هذا الجدول:

---

(١) المرجع نفسه، ٢/٢٥٩.
(٢) جرجي زيدان، العرب قبل الاسلام، ص ٥٤.
(٣) الموضع نفسه.
(٤) المرجع نفسه، ص ٥٥.

اسم الدولة	عدد ملوكها	سنو حكمهم
دول قبل الطوفان	١٠	٤٣٢٠٠٠
دول بعد الطوفان	٨٦	٣٤٠٨٠
دولة بادي	٨	٢٠٤
دول أخرى	(ضاعت	أرقامها)
دولة الكلدان	٤٩	٤٥٨
دولة العرب	٩	٢٤٥
دولة الأشوريين	٤٥	٥٢٦

أما الدولتان الأوليان، فرفضهما المؤرخون نظراً لأرقامهما الخيالية. واعتبروا الدول الأخرى تاريخية حقاً ـ ولا سيما الدول الثلاث الأخيرة. فإن نحن نظرنا إلى «دولة العرب» التي ذكرها بروسوس، وقارناها بالدولة البابلية الأولى ـ أي دولة حمورابي (٢٤٦٠ ـ ٢٠٨١ ق.م.) رجّحنا أنها هي المعنية. فأرقام عدد الملوك وسنو الحكم متقاربة، لأن هذه الدولة توالى عليها أحد عشر ملكاً، توزعوا بين القرن الرابع والعشرين ق.م. وبين القرن الواحد والعشرين ق.م.[١] ونتوقف قليلاً عند هذه الدولة.

قلنا إن الساميين نزحوا إلى بلاد ما بين النهرين واختلطوا بالسومريين. وما لبثت الحروب أن نشبت بينهما في الألف الثاني ق.م. وما هي إلا أن استولى الساميون، بقيادة سرجون الأول (٢٣٤٠ ـ ٢٢٨٤ ق.م.)، على مقاليد الحكم[٢]. ثم ثارت عليه شعوب مختلفة فدحرها[٣].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥٩.
(٢) جورج كونتنو، المدنيات القديمة في الشرق الادنى، تعريب: متري شماس، سلسلة ماذا أعرف، المنشورات العربية، مجهول الطبعة والتاريخ، ص ٩١.
(٣) المرجع نفسه، ص ٩٢.

واستمر نارام ـ سين (مات حوالي ٢٢٠٠ ق.م.) على سياسة أبيه. ولكن المملكة ما لبثت أن تفسخت في القرن الثالث والعشرين ق.م. وكانت لارسا آخر الممالك؛ إلا أنها ما انفكت أن انهارت تحت ضربات حمورابي (مات ٢٢٢٢)[1]. وأول ملوك الساميين الذين نذكرهم هو ساموابي (مات ٢٣٨٥) أي «ابن سام»، وهو رأس دولة بابل. وفي ما يلي جدول بالملوك البابليين ومدة حكمهم[2]:

اسم الملك	مدة حكمه	من سنة (ق.م)	إلى سنة (ق.م)
ساموابي	٣١	٢٤١٦	٢٣٨٥
شاموليلو	١٥	٢٣٨٥	٢٣٧٠
زابوم	٤٥	٢٣٧٠	٢٣٣٥
اميل سين	١٨	٢٣٣٥	٢٣١٧
سينموبليت	٣٠	٢٣١٧	٢٢٨٧
حمورابي	٥٥	٢٢٨٧	٢٢٣٢
شمسو إيلونا	٣٥	٢٢٣٢	٢١٩٧
أبيشوع	٢٥	٢١٩٧	٢١٧٢
عمى ديتانا	٢٥	٢١٧٢	٢١٧٤
عمى صادوقا	٣٤	٢١٤٧	٢١١٣
شمسو ديتانا	٣١	٢١١٣	٢٠٨٢

ومجموع حكمهم ٣٤٤ سنة، تقاسمها احد عشر ملكاً كما نرى. وهنا لا بد لنا من أن نشير إلى أن التواريخ المذكورة (وقد نقلها جرجي زيدان) تختلف عن تواريخ نقلها سواه للأشخاص انفسهم، فجعل حكم

(١) المرجع نفسه، ص ٩٥.
(٢) جرجي زيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٥٩.

هؤلاء الملوك من ١٨٩٤ حتى ١٥٩٥ ق.م[1]، وجعل ملك حمورابي من سنة ١٧٩٢ حتى ١٧٥٠ ق.م، وحكم ابنه شمسو إيلونا من ١٧٤٩ حتى ١٧١٢ ق.م، وشمسو ديتانا من ١٦٢٥ حتى ١٥٩٥[2]. ونحن أميل إلى هذه التواريخ.

وكانت دولة حمورابي قد اقتبست من تمدن السومريين، واستعملت لغتهم في أول الأمر، ثم أهملتها حتى غلبت فيها اللغة السامية، وزاد البابليون في الأحرف السومرية، وكانت هذه اللغة هيروغليفية، اي صُوَرّية. وقد كان للسومريين قانون بلغتهم وضعه أور- نامّو مؤسس سلالتهم[3]. أما قوانين حمورابي التي تعتبر أسّ الدولة البابلية في التشريع فلم تكن إلا نوعاً من العقلنة لأنظمة قديمة سبقتها[4]. وقد وردت قبلها أنظمة لبيت اشتار ملك ايسين من سلالة بابل الأولى.

وعلى كل حال، لن نتوسع في تاريخ الدولة البابلية الأولى. لكننا سنبيّن أنها عربية. ونعني بهذا أنها أنها تَمُتُّ بصلة إلى العرق العربي، بل هي متحدرة من هذا العرق. وفي هذا الأمر قال مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧): «وقد اختلف الباحثون في منشأ تلك الشعوب الذي امتهدته وتفرقت منه، فذهب بعضهم إلى أن مهد الساميين الحبشة في أفريقية[5]، وقال آخرون بأن مهدهم جزيرة العرب. والقائلون بهذا الرأي

---

(١) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ١٣٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٦. وقارن: لويس معلوف المنجد في اللغة والاعلام، دار المشرق، المكتلة الشرقية، ط ٢٦، ص ١٠٦ (بابل) و ٢٦٠ (حمورابي).
(٣) جورج كونتنو، المدنيات القديمة في الشرق الأدنى، ص ٧٨.
(٤) المرجع نفسه، ص ٧٨ ـ ٧٩.
(٥) يذهب جرجي زيدان هذا المذهب ـ راجع: تاريخ العرب قبل الإسلام، =

أكثر نفراً وأعز انصارا، ولهم في ذلك آراء أخرى متنوعة الأدلّة، ولكن مما لا يمترون فيه أن العربية كانت أبعد آفاق التاريخ التي أضاء فيها كوكب الحضارة المشرق، وقد تحققوا ذلك بما اكتشفوه سنة ١٩٠١ في بلاد السوس من آثار دولة حمورابي وهي المسلة التي دونت عليها الشريعة البابلية في ٢٨٢ نصاً، وما ثبت لهم من أن هذه الدولة عربية، وهي تبتدىء سنة ٢٤٦٠ ق.م»[١] وواضح في قوله هنا أن دولة حمورابي عربية. والأدلة على ذلك هي:

١ ـ أورد بروسوس اسم «دولة العرب» كما ذكرنا، وقد قلنا إنها تتناسب ودولة حمورابي من حيث التواريخ وعدد الملوك.

٢ ـ عُرف سكان البادية قديماً باسم «عمورو» ثم سموا «عريبي»؛ واسم جد العمالقة «عريب»، كما يذهب الطبري.

٣ ـ المشابهة التي بين لغة الدولة البابلية (دولة حمورابي)، وبين اللغة العربية لا نجدها بينها وبين سائر اللغات السامية، إلا من كان ناطقوها من بقايا العمالقة[٢]. فاللغتان تتقاربان في صيغ الأفعال، وفي اعتمادهما التنوين، وفي علاقة الجمع، وفي غير ذلك.

٤ ـ تركيب الأسماء البابلية ـ اسماء الملوك ـ عربي.

٥ ـ التشابه في الآلهة وأسمائها بين البابليين وعرب اليمن.

= ص ١٧١، ويذكر أن سالت وريتر وغيرهما من المؤرخين رأوا هذا أيضاً (ص ١٧٠).

(١) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، ط ٤ ١٩٧٤، ١/ ٤٧.

(٢) كلغة بطرا وتدمر.

٢ ـ مملكتهم في مصر: كانت للعرب علاقات بالمصريين منذ الزمن القديم. وقد نزح إليها الساميون، ومعهم ابتدأ العصر الحديدي. وقد سمى المصريون أهل البادية «شاسو»[١]، ومعناها البدو، وعند البابليين «العرب». وكان الشاسو يتنقلون في البادية المصرية ويعيشون حياة محض بدوية. وكان للعرب سيادة في سيناء وقد غزاها نارام ـ سين. ولفظة «شاسو» كانت تطلق على أرض ميديان موطنهم آنذاك، كما ذُكرت في آثار بابل عام ٣٧٥٠ ق.م[٢].

وكان الشاسو من الغزاة، يقطعون الطرق ويكمنون فيها، ويسرقون المصريين، فخافوهم. ولما تدهورت أمور مصر بعد نقمة الساميين عليها لسياستها الخارجية، اغتنم العمالقة الفرصة، وانقضوا على مصر السفلى، ومكثوا بها بضعة قرون، اقتبسوا خلالها الحضارة المصرية، وصار ملوكهم فراعنة[٣].

أما العرب، فقد ذكروا دخول العمالقة مصر. يقول ابن خلدون: «إن بعض ملوك القبط استنصر ملك العمالقة بالشام لعهده ـ واسمه الوليد بن دومغ، ويقال ثوران بن أراشة بن فادان بن عمرو بن عملاق ـ فجاء معه وملك مصر واستعبد القبط، ومن ثم ملك العماليق مصر. ويقال إن منهم فرعون ابراهيم، وهو سنان بن الأشل، وفرعون يوسف وهو الريان بن الوليد، وفرعون موسى وهو الوليد بن مصعب. وذكر آخرون أن الريان بن الوليد يسميه القبط نقراوش، وأن وزيره كان أطفير وهو العزيز صاحب قصة يوسف[٤]».

---

(١) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ١٢٨.
(٢) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٧٦.
(٣) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ١٣٠.
(٤) تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٢٧.

ويذكر اليعقوبي (مات ٨٩٧) في تاريخه أن العمالقة دخلوا مصر. يقول: «وكان أولاد بيصر قد كثروا وامتلأت البلاد منهم، فلما ملّكوا النساء طمعت فيهم العمالقة ملوك الشام، فغزاهم ملك العمالقة، وهو يومئذٍ الوليد بن دومع، ووطىء البلاد، فَرَضوا أن يملّكوه عليهم، فأقام دهراً طويلا. ثم ملك بعده آخر من العمالقة يقال له الريان بن الوليد، وهو فرعون يوسف. ثم ملك آخر من العمالقة يقال له دارم بن الريان. ثم ملك بعده كاسم بن معدان. ثم ملك فرعون موسى، وهو الوليد بن مصعب، فاختلفت الرواة في نسبة...[1]» وغرقه الله في بحر القلزم. ثم ملكت بعده نساء.

وقد ذكرنا أن العمالقة عرب[2]. ولفظة شاسو، كما بيّننا، تعني البدو (والعرب باللغة البابلية)، إذ ورد في بعض النقوش المصرية أن الهكسوس قدموا من بلاد العرب. ولفظه هيك شاسو تعني ملوك البادية لا الملوك الرعاة فحسب. وعليه، يكون العماليق قد وصلوا إلى مصر السفلى، وأسسوا لهم مملكة فيها.

٢ ـ تفرقهم: بعد أن خرج العمالقة من مصر والعراق، أسسوا دولاً في جزيرة العرب. ومن نسلهم القبائل البائدة التي سنأتي على ذكرها، وكذلك الانباط وسكان تدمر.

*** عاد:** يقترن اسم عاد بإرم. وقد جاء في القرآن الكريم: **﴿إرم ذات**

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، مجهول الطبعة والتاريخ، ١/ ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، ١٩٧٧، ٥/ ٤٤٢.

العماد﴾[1]. وظن النقاد أن إرم اسم مدينة جعلها بعضهم دمشق (وبعضهم الاسكندرية) مستندين على اللفظة نفسها وهي من أسماء دمشق العبرية. وجعلها بعضهم في اليمن ونسبوا بناءها إلى ملك يدعى شداد. قال ابن خلدون: «وابعد من ذلك واعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة الفجر في قوله تعالى: ﴿أم ترَ كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد﴾[2]، فيجعلون لفظة إرم اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين. وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان، هما شديد وشداد ملكا من بعده. وهلك شديد وخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم، وسمع وصف الجنة، فقال: لأَبْنِيَنَّ مثلها. فبنى مدينة إرم في صحارى عدن في مدة ثلاثمئة سنة، وكان عمره تسعمئة سنة، وإنها مدينة عظيمة، قصورها من الذهب، واساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطّردة. ولما تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليل بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم[3]». وجعل جرجي زيدان مدة بناء هذه المدينة ـ على زعم الأساطير ـ خمسمئة سنة[4]. وجَعْلُ إرمَ مدينةً خطأً ـ أكد على ذلك ابن خلدون ذاكراً سبب الالتباس، قال: «والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب في لفظة ذات العماد انها صفة إرم، وحملوا العماد على الاساطين فتعين أن يكون بناء. ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد

---

(١) الفجر/ ٧.

(٢) الفجر/ ٦ ـ ٧.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، دار احياء التراث العربي، ط ٤، ص ١٤ وترى قصة عاد مطوّلة في: تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢٤ وما بعدها.

(٤) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٨٤.

إرم على الاضافة من غير تنوين. ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات. وإلا فالعماد هي عماد الأخبية، بل الخيام، وان أريد بها الأساطين فلا بدع في وصفهم، وإنهم أهل بناء واساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها. وان أضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى إضافة الفصيلة إلى القبيلة كما تقول كنانة، والياس مضر، وربيعة نزار[1]».

والأرجح أن إرم هو اسم القبيلة أو الجد، لا اسم المدينة، فجميع القبائل العربية التي بادت هي من نسل إرم. وقد ذكر اليونان إحدى قبائل اليمن، وسموها باليونانية adramitai. وليست هذه الكلمة حضرموت، إذ إن هذه تكتب Xadramotitai، فالمراد بها اذا هو العادراميون ـ أي بنو عاد.

ولما كان العرب يُنْسَبون إلى القبيلة، أو إلى الجد، فقد نسبوا إلى إرم. يقول ابن خلدون: «كان يقال: عاد إرم، فلما هلكوا، قيل: ثمود إرم، فلما هلكوا، قيل نمرود إرم، فلما هلكوا، قيل: سائر ولد إرم ارمان[2]».

وكثرت المبالغات في تاريخ عاد، وفي أفرادها. ومما قيل «إن طول الرجل منهم ٧٠ ذراعاً إلى مئة ذراع، ورأس أحدهم كالقبة العظيمة،

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥.
(٢) تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٧١.

وعيناه تفرخ بها السباع[1]». وجعلوا حياة ملوكهم طويلة جداً، فزعموا أن عاداً عاش ألفاً ومئتي سنة، واعتدل بعضهم فجعل عمره ثلاثمئة سنة[2]. ولعل قلة عدد الملوك الذين عرفوهم وطول حكمهم هو ما جعل المؤرخين ينسبون إليهم الأعمار الطويلة. وأهم هؤلاء الملوك شداد أعظم رجالهم وأكبر فاتحيهم. وقد ذكر ياقوت (مات ١٢٢٨) أن في ذروة جبل جش ـ إرم مساكن لعاد وارم[3].

* ثمود: لا تكاد تذكر عاد الا وتذكر معها ثمود. وقد قال القرآن غير مرة إن الله أبادها لأنها كفرت واستكبرت. ومقام ثمود كان في الحجر التي عرفت بمدائن صالح، وفي وادي القرى وقد ذكر أن ثمود كانت في اليمن، فأخرجتها حمير إلى الحجاز. وسماها اليونان thamudeni. وقد أورد جرجي زيدان نقلاً عن كوكس نقشاً نبطيا وجدوه في الحجر، يقرب تاريخه من الميلاد، وهذا نصه: «هذا القبر الذي بنته كمكم بنت وائله بنت حرم وكليبة ابنتهما لأنفسهن وذريتهن في شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه فعسى ذو الشرى وعرشه(؟) واللات وعمند ومنوت[4] وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيه أحدا غير كمكم وابنتها وذريتها ومن يخالف ما كتب عليه فليلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر (؟) غرامة مقدارها ألف درهم حارثي إلاّ مَنْ كان بيده تصريح من يد كمكم أو كليبة ابنتها بشأن هذا القبر والتصريح المذكور يجب أن يكون

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٨٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٣) ياقوت، معجم البلدان ٢/ ١٤١ قال: «وفي ذروته مساكن لعاد وإرم».
(٤) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٨٨.

صحيحاً. صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة[١]».

وربما كانت ثمود قد أبادتها الزلازل والبراكين[٢]. ويقال إن قبيلة ثقيف من بقايا ثمود[٣]. ويذهب النسّابون إلى أن بني لحيان ثموديو الأصل لأنهم إحدى بطون ثقيف[٤].

* **طسم وجديس**[٥]: يقترن هذان الاسمان ببعضهما كما هي الحال

---

(١) منوت أي مناة الهة الموت والقدر عند الوثنيين العرب. وهنا الواو لم تبدل ألفاً.

(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٣. ورد ذكر ثمود ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم وذلك في المواضع التالية: الأعراف/ ٧٣ ـ هود/ ٦١، ٦٨، ٩٥ ـ الاسراء/ ٥٩ ـ الشعراء/ ١٤١ ـ النمل/ ٤٥ ـ فصلت/ ١٧ ـ الذاريات/ ٤٣ ـ القمر/ ٢٣ ـ الحماقة/ ٤، ٥ ـ الشمس/ ١١.

(٤) الموضع نفسه. وهذا رأي جلازر ايضاً، راجع: جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٨٩. على كل حال الأرجح أن ثمود قد عرفت الحدائق والزراعة والاستقرار كما تدلنا النقوش والروايات. وتفيد بعض النقوش أن زراعة القطن كانت معروفة في ديار هذه القبيلة (Alb. Van Den Branden, Histoire de Thamoud Publication de l'université libanaise, 1966, p 38 - 39) ويمكن مراجعة المرجع المذكور في أخبار ثمود. ويرى بعضهم أن ثمود لم تَفْنَ كلياً وظلت لها بقايا حتى القرن الخامس (محمود سليم الحوت، في طريق الميتولوجيا عند العرب، دار النهار، ط ٢، ١٩٧٩، ص ١٧٧.

(٥) راجع تفصيلهما في: ابن الأثير، الكامل، دار الكتاب العربي، ط ٤، ١٩٨٣، ١/ ٢٠٣ وما بعدها. و: ياقوت، معجم البلدان، ٢/ ٢٢١ و ٥/ ٤٤٢ ـ ٤٤٧.

بالنسبة إلى عاد وثمود. وكان محلهما باليمامة[1]. ورأس طسم هو طسم بن لوذ بن أزهر، ورأس جديس هو جديس بن عامر بن سام، وهما أبناء عم. وكان ملك القبيلتين أيام ملوك الطوائف (وهم ملوك الفرس بعد الاسكندر (مات ٣٢٣ ق.م)) ظالماً، مستبداً، قبيح السيرة، يدعى عمليق[2]. وحدث أن تخاصمت امرأة وزوجها لأنه أراد أن يأخذ طفلها بعد أن طلقها؛ فاحتكمت إلى عمليق، فجعل الولد من غلمانه وأمر ببيع الرجل والمرأة على أن يأخذ زوجها خمس ثمنها والمرأة عشر ثمن زوجها. فأنشدت قائلة:

أَتَيْنَــا أَخَــا طَسْــمٍ لِيَحْكُــمَ بَيْنَنَــا
فَــأَنْفَــذَ ظُلْمــاً فِــي هَــزِيلَــةَ ظَــالِمَــا
لَعَمْــرِي لَقَــدْ حَكَّمْــتَ لاَ مُتَــوَرِّعَــا
وَلاَ كُنْــتَ فِــي مَــنْ يُبْـرِمُ ٱلحكْـمَ عَــالِمَــا
نَــدِمْــتُ وَلَــمْ أَنْــدَمْ وَإِنِّــي بِعَثْــرَتِــي
وَأَصْبَــحَ بَعْلِــي فِــي ٱلحُكُــومَــةِ نَــادِمَــا

إذ ذاك غضب عمليق ومنع أن تزوج بكر من جديس أو أن تُهدى إلى زوجها حتى يفترعها هو، فأذلهم كثيراً. واستمر الأمر كذلك حتى زوجت بكر تدعى الشموس وهي عقيرة بنت عباد أخت الأسود، فافترعها عمليق ثم أطلقها. فوصلت إلى بني قومها في أسوأ منظر فاستحثتهم على القتال،

---

(١) المرجع الثاني نفسه، ١/٣٥١ و: مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب ١/٥٠

(٢) ابن الاثير، الكامل، ١/٢٠٣ وقارن: ياقوت، معجم البلدان، ٥/٤٤٢، إذ يذكر أن اسمه عمليق بن هباش بن هلعيش بن ملادش بن هركوس بن طسم.

وأنشدت فيهم شعراً هذا بعضه:

أيُجْمَلُ مَا يُؤتَى إلَى فِتيَانِكُمْ
وَأَنْتُمْ رِجَالٌ فِيكُمْ عَدَدُ ٱلنَّمْلِ
وَتُصْبِحُ تَمْشِي فِي ٱلدِّمَاءِ عَفِيرَةً
جِهَاراً وَزُفَّتْ فِي ٱلنِّسَاءِ إلَى بَعْلِ
وَلَوْ أنَّنَا كُنَّا رِجَالاً وَكُنْتُمُ
نِسَاءً لَكِنَّا لاَ نُقِرُّ بِذِي ٱلفِعْلِ
فَمُوتُوا كِرَاماً أَوْ أَمِيتُوا عَدُوَّكُمْ
وَدِبُّوا بِنَارِ ٱلحَرْبِ بِٱلحَطَبِ ٱلجَزْلِ
فَبُعْداً وَسَحْقاً لِلَّذِي لَيْسَ دَافِقاً
وَيَخْتَالُ يَمْشِي بَيْنَنَا مِشْيَةَ ٱلفَحْلِ

فهب أخوها الأسود واستحث جديس، وأحكم الخدعة. فدعا طسماً إلى طعام أعده لهم، بعد أن طمر سيوف جديس، فلما قعدوا في مجالسهم يأكلون، أخذ أبناء جديس بن تُبّع ملك اليمن واستنصروه، فسار معهم إلى اليمامة، وانذره بعضهم من أخت متزوجة ترى الراكب من بعد مسيرة ثلاثة أيام يقال لها اليمامة. فجعل كل واحد أمامه شجرة. ورأتهم هذه، فأنذرت جديسَ، لكنهم لم يصدقوها. فأغار الحميريون على جديس وأفنوها[1]، وفقأوا عيني اليمامة. وقد ذكرها الشعراء في شعرهم كثيرا.

وهرب الأسود بعد مهلك جديس إلى جبلي طيّىء قبل نزول القبيلة المسماة بهذا الاسم فيهما. وكان يأتي بحمار سمين وهم لا يدرون من

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ١/ ١٩٤ ـ ١٩٥ و: ابن الأثير، الكامل، ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

أين. فتبعوه؛ وما زالوا حتى بصروا به في إحدى البقاع الغنّاء بين جبلي أجأ وسلمى، فقتلوه وأقاموا فيها. وقد فنيت جديس في أوائل القرن الخامس للميلاد. ويقال إن طسماً وجديس هما من ولد الازد بن إرم بن لاوذ بن سام بن نوح[1].

* **القبائل الأخرى:** وهي أميم، ومسكنها بادية أبار بين عمان والاحقاف؛ وعبيل بيثرب؛ وجاسم وهي إحدى بطون العماليق؛ وجرهم الأولى ومسكنها اليمن؛ وجرهم الثانية التي هاجرت إلى مكة وتزوج ابراهيم الخليل من إحدى نسائها قبل ان تلحد وتعاقب على ما يروى؛ ووبار ومسكنها أرض وبار باليمن[2]. وأخبار هذه القائل قليلة.

* **دولة الانباط:** مقر هذه الدولة جنوب ـ شرق فلسطين، وهي أرض صخرية. والانباط (أو النبط) بدو من عرب الشمال، انتشروا في القرن السادس قبل الميلاد حيث ذكرنا وكانت تلك المناطق تخضع لنفوذ الكنعانيين والآراميين[3]. ويروي بعضهم أنهم نزحوا من شرق الأردن إلى تلك المنطقة[4]. وكان الحوريون قد سكنوا بلاد العرب الصخرية، وسماهم اليونان troglodytes. ثم جاء الأدوميون[5] الذين ذكرتهم التوراة، وساعدوا بني خدنصر في فتح أورشليم، وكانت مُكافأتهم تأييد سلطتهم في

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ٥/ ٤٤٢.

(٢) الرافعي، تاريخ آداب العرب، ١/ ٥٠.

(٣) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ١/ ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٨٨.

(٥) الموضع نفسه، وجرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٩٢.

أدوم[١]. وما لبث الأنباط أن داهموا الأدوميين من الشرق، وكانوا، على الأرجح، نازحين من بادية الشام[٢].

ومدينة الأنباط الرئيسة هي البتراء (بطرا)، مدينة صخرية أنشأها الأدوميون، تقع في وادي موسى. ومعنى البتراء الحرة، يقابلها بالعبرية لفظة «سلع»[٣] وبالعربية «الرقيم»[٤]، وهو تحريف للفظة اليونانيةAske.

وكانت طبيعة البلاد تساعد الأنباط كثيرا في المعارك إذ فشل انطيغونس خليفة الاسكندر مرتين في حملاته عليهم[٥]: انتظر خروج الرجال من المدينة في المرة الأولى فأغار عليها، فالتقى الأنباطُ جنودَه عندما كانوا عائدين وقتلوهم. وحاصر المدينة في المرة الثانية، فعجز عن دخولها، فانسحب.

وقوي الانباط وأسسوا دولة وضربوا النقود. وأقدمُ ملك وصل الباحثون إلى آثاره هو الحارث الأول (مات ١٦٩ ق.م) ومن أشهر ملوكهم الحارث الثالث (مات ٦٢ ق.م). والحارث الرابع (٩ ق.م ـ ٤٠ م) الذي بلغت دولتهم خلال حكمه أوج مجدها[٦]، وانهارت تدريجيا بعده، حتى

---

(١) الموضع الثاني نفسه.

(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣١.

(٣) راجع: التوراة اشعيا: ١/١٦ و١١/٤٢، وسفر الملوك الثاني: ٧/١٤ وقابل: سفر الاحبار الثاني: ١٢/٢٥ وارامیا: ١٦/٤٩.

(٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، ٨٩/١ و: جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٩٣. والبتراء هنا ليست تلك التي عثر عليها في سياق غزوة النبي محمد لبني لحيان.

(٥) الموضع الأول نفسه، والمرجع الثاني نفسه، ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٦) المرجع الثاني نفسه، ص ١٠٠.

سقطت على يد الامبراطور تراجانوس عام ١٠٦ م [١]، فاختلطوا بالسكان السريان أو الآراميين على حدود فلسطين وسورية. وبعد سقوط البتراء تحولت الطرق التجارية إلى مدينة تدمر. ومن الجدير بالذكر أن الخط النبطي المأخوذ من الآرامي هو ما خرجت منه الكتابة العربية المتداولة اليوم، واللهجة التي نزل بها القرآن الكريم متطورة من اللهجة النبطية المتأخرة[٢]. وفي ما يلي نسخة نبطية بالأحرف العربية عثر عليها بين أنقاض مدائن صالح[٣]:

١ ـ دنه قبرا دي عبدو بركهيلو بر

٢ ـ الكسي لنفشه وبلده واحره ولمن دي ينفق بيده

٣ ـ كتب تقف من يد عيدو قيم له ولم دي ينتن ويقبر به

٤ ـ عيدو بحيوهي بيرح نيسان شنة تشع لحرتت ملك

٥ ـ نبطو رحم عمه ولعنو ذو شرى ومنوتو وقيشه

٦ ـ كل من دي يزبن كفرا دنه أو يزبن أو يرهن أو ينتن و

٧ ـ يوجر او يتالف علو هي كيتب كله أو يقبر به انوش

٨ ـ لهن لمن دي علا كتيب وكفر وكتبه دنه حرم

٩ ـ كحليقت حرم نبطو وشملو لعلم علمين

---

(١) الموضع نفسه، وفيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٩٠ وقارن: بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٢١ حيث يذكر فتنة اليهود في عهد طيطوس.

(٢) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ١/ ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٣) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٠٩.

وترجمته باللغة العربية هي التالية:

١ ـ هذا هو القبر الذي بناه عائذ بن كهيل بن

٢ ـ القسي لنفسه واولاده واعقابه ولمن يكون في يده

٣ ـ كتاب من يد عائذ يبيح له ولأي واحد يخوله عائذ في حياته أن يدفن فيه

٤ ـ في شهر نيسان السنة التاسعة للحارث ملك

٥ ـ الانباط محب شعبه ولعن ذو الشرى ومناة وقيس

٦ ـ كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو

٧ ـ يؤجره أو ينقش عليه شيئاً آخر أو يدفن فيه أحداً

٨ ـ الا الذين اسماؤهم أعلاه إن القبر وما كتب عليه حرم مقدم(إلى أبد الآبدين)[١]

*** مملكة تدمر**: كان مركز تدمر في الصحراء عند طرف البادية التي تفصل العراق عن الشام. وكانت هذه المدينة تجارية، شأن البتراء، ومحطة لمرور القوافل منذ القرن السادس قبل الميلاد[٢]. وقد حاول الرومان فتحها في نصف القرن الأول ق.م. ففشلوا. ثم تدخلوا في أمورها حتى صارت مستعمرة رومانية في عهد سبتيموس سفيروس (مات ٢١١)[٣].

---

(١) جملة «ان القبر... حتى الآبدين» هي الرقم ٩ من النقش النبطي الأصلي. وقد نقلناها كما أوردها جرجي زيدان، بالإضافة إلى عبارة (إلى أبد الآبدين).

(٢) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ١/ ١٦٥.

(٣) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١١٣، وفيليب حتي، تاريخ العرب، =

وكان معظم سكان تدمر آراميين، إلا أنّ السيطرة فيها كانت للعرب[1]. ويقال إنهم كانوا من العمالقة[2]، أو من بقاياهم[3].

وفي عهد أذينة (أذينث اذيناسوس: مات ٢٦٨) الملقب بملك الملوك[4] توسعت سيادة تدمر؛ لأنه ساعد الرومان على الفرس، فكافأوه، وما لبث أن صار سيد سورية وما يليها من آسية الغربية، حتى إن الأمبراطور غليلنس (مات ٢٦٨) اعترف بأذينة أمبراطوراً على المشرق[5].

ثم مات أذينة وابنه الأكبر هيروديس، فملك ابنه الثاني وهب اللات، وصارت أمه زنوبيا (في الآرامية: بث زباي) صاحبة النفوذ، ونالت من الرومان لقب «سبتميا» ـ وهو أحد أكبر ألقاب الشرق. وكان لها عزم الرجال، تحسن الآرامية والقبطية وبعض اللاتينية والرومانية، كثيرة الاطلاع على تاريخي الشرق والغرب[6]. فبسطت نفوذها على مصر وقسم كبير من آسية الصغرى، وقهرت الرومان حتى أنقرة[7]، ووصل رجالها إلى مصر

= ١/ ٩٨.

(١) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٢، وشوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٢٩٥.

(٣) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ١/ ١٦٥.

(٤) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١١٥.

(٥) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٢ وشوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٢.

(٦) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ١/ ١٦٩.

(٧) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٩٩.

(الاسكندرية). هذا الأمر أغضب أورليانوس ـ ولا سيما أن زنوبيا كانت قد أعلنت استقلالها عن رومة[1] ـ فحاصر بجيشه الجرار تدمر. وحاولت زنوبيا الفرار، لكن الرومان قبضوا عليها؛ فخاف أهل المدينة وسلموا، فعفا اورليان عنهم، وكان هذا عام ٢٧٢ م. ولكن تدمر ما لبثت أن ثارت عندما كان أورليان في طريق العودة، فعاد إليها، ودك أسوارها، وقتل معظم سكانها.

وقد ذكرها العرب باسم «الزبّاء»، وتشوّهت قصتها عندهم بانتقالها على الألسن، فابتعدت عن الصواب[2]، ودخلتها مبالغات كثيرة. واللافت أنهم جعلوا الزباء ابنة رجل من العماليق يدعى عمرو بن الظرب[3].

ب ـ العرب المتعرّبة:

وهم عرب الجنوب، ويدعون القحطانيين، نسبة إلى يعرب بن قحطان. وقد سموا متعربة لأنهم أخذوا العربية عن العرب البائدة (أو العاربة). فهم ـ كما يذهب العرب ـ ليسوا خُلَّصاً. يقول ابن دحيا: «وهم الذين ليسوا بخُلَّص، وهم بنو قحطان[4]». وفي تعرّ بهم يقول الرافعي: «ويعرب هذا هو الذي يزعم العرب أنه أصل اللغة الفصحى[5]». ويقول

---

(١) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ١/١٦٩.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٣. وراجع: ابن الأثير، الكامل، ١/١٩٧ وما بعدها، وفيليب حتي، تاريخ العرب، ١/١٠٨، وتاريخ اليعقوبي، ١/٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٣) راجع هذا في: ابن الأثير، الكالم، ١/١٩٨، وتاريخ ابن خلدون، ٢/٢٦١، وفيليب حتي، تاريخ العرب، ١/١٠٠.

(٤) السيوطي، المزهر، ١/٣١.

(٥) الرافعي، تاريخ آداب العرب، ١/٥١.

ابن دحيا: «وسمي يعرب بن قحطان [واسمه مهزّم] لأنه أول من انعدل لسانه عن السريانية إلى العربية. وهذا معنى قول الجوهري (مات حوالى ١٠٠٧ م). في الصحاح: أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان[١]».

وقد عرف هؤلاء الجنوبيون ممالك هي: مملكة المعينيين ومملكة السبئيين ومملكة دولة اليمن الكبرى. أما دولتهم الصغرى فعرفت مملكة الجبئيين ومملكة القتبانيين ومملكة القريين. بيد أن العرب لا يعتبرون لسان حمير وبقايا جرهم وسكان أقاصي اليمن لساناً عربياً. قال يونس (٧١٠ ـ ٧٩٨) عن أبي عمرو بن العلاء (٦٨٩ ـ ٧٧٠): «العرب كلها ولد اسماعيل الا حمير وبقايا جرهم[٢]». وواضح هنا انهم لا يعتبرونهم من نسلهم. وقال أبو عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا[٣]». وفي ما يلي نعدد الممالك العربية الجنوبية:

أ ـ الدولة المعينية: نشأت في بطن اليمن، ثم استولت على معظم المناطق الجنوبية. وهم أقدم شعب عربي جنوبي وصلت إلينا أخباره، إذ إن دولتهم ظهرت في اليمن منذ القرن الثالث عشر ق.م. كما يرى بعضهم[٤]. وعاصمتهم معين ينسبون إليها[٥] بالاستناد إلى النقوش التي

---

(١) السيوطي، المزهر، ١/ ٣١ ـ ٣٢.

(٢) ابن سلام، طبقات الشعراء، دار الفكر للجميع، مجهول الطبعة والتاريخ، ص ٨.

(٣) الموضع نفسه.

(٤) أحمد سوسه، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، وزارة الإعلام العراقية، السلسلة الإعلامية (رقم ٧٩): ١٩٧٩، ص ١٩٤.

(٥) هذا رأي جلازر وهالفي: قارن: جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٥٠، وفيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٧٢. ويرى بعضهم أن عاصمتها في مدينة =

عثر عليها، وبعض الأشعار.

وقد بلغ عدد الملوك الذين عُثِرَ على أسمائهم في أنقاض الجوف ٢٦ ملكاً. لهم ألقاب ونعوت، وبعضهم بلا لقب مثل أب يدع - أليفع - حفن بن أب يدع - وغيرهم... ومن أقدم الأسر التي عثر على اسماء ملوكها «إيل صادق» و «وقه إيل» و «صديق إيل[١]»...

وكانت الحكومة وراثية في معين، يجوز أن يتولاها اثنان معاً. وكان اسم الملوك في الحقبة الأولى «مزواد[٢]». ولعل هذا الاسم يتضمن معنى الكهانة. وشمل نفوذ المعينيين جزيرة العرب كلها. إلا أن دولتهم كانت دولة تجارية. والأرجح أن عاصمتهم كانت، في بادىء الأمر، معين، كما ذكرنا، ثم صارت «القرن» أو «قرنا[٣]». وما لبث السبئيون أن غلبوهم على دولتهم.

وقد ذكرت التوراة المعينيين[٤]، كما ظهر في آثار بابل ذكر هذه الدولة بين أخبار نارام - سين حوالي عام ٣٧٥٠ ق.م. وثمة من يرى أن المعينيين من بدو الآراميين، تأثروا بالسومريين في حضارتهم وديانتهم[٥]. ونزحوا إلى الجنوب بعد ذهاب دولتهم في العراق.

= «القرن» (أحمد سوسه، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، ص ١٩٥ وأحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ١/٢٠٧).

(١) أحمد سوسه، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، ص ١٩٦.

(٢) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٥٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٥٣، وفيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٧٢.

(٤) سفر الاحبار الثاني: ٣٦/ ٧ (وسموا المعونيين).

(٥) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٥٤.

ب ـ **الدولة السبئية**: ورثت هذه الدولة حكومات قتبان ومعين، وهي تمثل دولة اليمن الكبرى[1]. والأقوال في أصلهم مضطربة، ولكنهم تدرجوا في حكمهم من الإمارة الصغيرة إلى الملك الواسع[2]. وقد ورد ذكرهم في الكتابات اليونانية والرومانية، وفي القرآن الكريم أيضاً[3]. ويرى بعضهم أنهم، في الأصل، قبائل بدوية من الجوف الشمالي بجزيرة العرب، نزحوا إلى الجنوب في القرن الثامن قبل الميلاد، وتوسعوا هناك مستفيدين من ضعف المعينيين[4]. ويدعى القائم على أمور الدولة مكرب، وهو يجمع بين الكهانة والملك[5]. وكانت هذه الدولة تعرف بتجارتها ويرجع الفضل إلى سبأ في نشر نفوذ الدولة السبئية، وهو أول ملك من ولد قحطان. وقيل إنه سمي عبد شمس، وكان «أول من ملك من ملوك العرب، وسار في الأرض، وسبى السبايا[6]».

ويبدو أن السبئيين مروا بأربعة أطوار، تغيرت خلالها ألقاب ملوكهم، فكان ملكهم في الطور الأول يسمى «مكرب سبأ»، ثم قالوا: «ملك سبأ»، ثم «ملك سبأ وريدان» ـ وكان ريدان محفداً[7] من محافدهم

---

(١) أحمد سوسه، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، ص ١٩٩.

(٢) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٦٠.

(٣) أحمد سوسه، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠٠.

(٥) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٧٠.

(٦) تاريخ اليعقوبي، ١/ ١٩٥.

(٧) المملكة عندهم تتألف من قصور ومحافد يرؤس كلاً منها شيخ أو أمير يملك القصر أو المحفد. وسنذكر ذلك فيما بعد.

الكبرى، سمي بعد ذلك ظفار ـ ثم قالوا: «ملك سبأ وريدان وحضرموت واعرابها في الجبال وتهامة[1]». وينقسم تاريخ الدولة السبئية إلى طورين: الطور الأول هو العصر السبئي الحقيقي، وفيه الدولة السبئية الحقيقية؛ والطور الثاني، وهو العصر الحميري.

- I - **العصر السبئي الحقيقي**: يبدأ هذا العصر بين القرن الثامن والتاسع ق.م. وأول حكامهم يتعمر، وهو من المكارب، وأول ملوك ذمر علي. وقد توالى على الحكم خمسة عشر مكرباً، واثنا عشر ملكاً[2]. فهم ثلاثة وعشرون جيلا. ويقدر مرحلة حكم الدولة بنحو سبعمئة سنة. وكان الحكم في الحقبة الأولى (أي منذ القرن التاسع أو الثامن ق.م. حتى حوالى ٦١٠ ق.م) يتصف بطابع كهنوتي، ثم تجرد منه في المرحلة الثانية (من حوالى ٦١٠ ق.م. حتى ١١٥ ق.م.) ثم صارت مأرب العاصمة[3]، وابتنوا فيها سداً شهيراً هو سدّ مأرب الذي سنأتي على ذكره لاحقاً. وصارت دولة السبئيين صلة الوصل بين مصر والشام والعراق والهند والحبشة. ولمّا ذهبت قوة هذه الدولة، تحولت طرق التجارة إلى البحر. ويحكي العرب أن سبب ذهاب دولة سبأ الحقيقية هو انهيار سد مأرب؛ ولكن هذا، بنظرنا، ليس هو الواقع، لأن الناس ـ على ما يبدو ـ كانوا قادرين على ترميمه.

- II - **العصر الحميري**: يبدأ عام ١١٥ ق.م. حتى ٥٣٥ ب.م. وقد اتحد السبئيون والحميريون أصحاب ريدان في دولة واحدة. ولما انتقل

---

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٦١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٢.

(٣) وقيل صرواح العاصمة، راجع: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٢٧.

الثقل إلى ريدان (ظفار) قوي هؤلاء وسيطروا. فصارت ريدان هي العاصمة[1]. وكان آخر ملوكهم ذو نواس.

وحمير في التاريخ هو ابن سبأ. يقول اليعقوبي: «ثم ملك بعد سبأ حمير بن سبأ، واسم حمير زيد، وكان أول ملك لبس التاج من الذهب مفصّصاً بالياقوت الأحمر[2]». وكان الحميريون يقيمون في ريدان قديماً، وقيل: كانوا حكاماً في قتبان[3]. ولما سنحت لهم الفرصة سيطروا، وصار لقب كبيرهم «ملك سبأ وذو ريدان[4]»، ثم صار لقبه، في القرن الثالث، «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت واعرابها في الجبال وفي تهامة[5]».

وكانت هذه الدولة ميالة إلى الحرب؛ ففتح بعض ملوكها الدول، وحاربوا الأحباش والفرس، واستمر حكمهم حوالى ٦٤٠ سنة «تنقسم إلى قسمين: القسم الأول كان الملك خلاله يدعى «ملك سبأ وذو ريدان»، والقسم الثاني (يبدأ منذ العام ٣٠٠ م). كان الملك في أثنائه يدعى «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت واليمنات[6]». وقد توالى في المرحلة الأولى ١٣ ملكاً، سوى الذين لم تعرف أسماؤهم، وحكموا من سنة ١٧٠ م. حتى ٢٥٠ م. وفي المرحلة الثانية ١٤ ملكاً، آخرهم ذو نواس الذي ذكرناه.

---

(١) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ١/ ٢١٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ١/ ١٩٥.

(٣) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ١٩٥.

(٤) وكان من قبل «ذو ريدان».

(٥) أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ١/ ٢١٨.

(٦) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٢٨.

وقد حفلت روايات العرب بكثير من المبالغات في وصف أعمال ملوك حمير، كزعمهم أن زعيمهم شمر يهرعش وطيء فارس وخراسان، وبنى مدينة سمرقند، وأن اسعد أبو كرب (مات عام ٤٢٠) غزا اذربيجان والقسطنطينية وهزم الترك[١]. وأن شمّر وصل إلى الصين وكان أخوه قد سبقه إليها، وغير ذلك من أخبار مبالغ فيها[٢].

وقد ذهب الأحباش النصارى بملك الحميريين الذين كانوا يهوداً في عهد ذي نواس، وأنشأوا لهم مملكة على شاطىء البحر الأحمر دامت حتى عام ٥٧٠ م. المعروفة بعام الفيل. وأجلوا نهائياً عام ٥٧٥ م[٣].

ج ـ فتح الأحباش: بما أن الأحباش ليسوا يمنيين بل أفارقة، فلن نتوقف عندهم طويلا. هؤلاء غزوا بلاد العرب عام ٣٤٠ م، وأجلوا عام ٣٧٨ م. فاسترجعت حمير سيادتها. وقيل إن يهوديا كان في نجران قُتِل له ابنان ظلماً، فرفع أمره إلى ذو نواس فزحف هذا الأخير على نجران، وقتل

---

(١) وقد ورد هذا أيضاً في إحدى قصائد أبي تمام التي يمدح بها المعتصم بعد فتح عمورية (وهي بلدة بيزنطية تحرسها قلعة منيعة دكها المعتصم ثم أحرق المدينة).
قال أبو تمام:
وَبَـرْزَةُ الـوجـه قـد اعيـت ريـاضتـه كسرى وصدت صدودا عن أبي كَرَبِ

وابو كرب هذا هو خليفة عمرو بن تبع ويقال له تبع بن حسان بن بجيلة بن ملكيكرب بن تبع الأقرن سار من اليمن إلى يثرب، وكان قد عذب الأوس والخزرج القطيون فشكا مالك بن العجلان الخزرجي إلى تبع وأعلمه غلبة يهود بني النضير وقريظة فقتل قوماً من اليهود وقتلوا له ابناء، فزحف إليهم وقاتلهم (تاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٧).

(٢) تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) أحمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، ط ١٠، ص ٢٧.

أهلها (ومعظمهم مسيحيون)، فاستنجد رجل نجا من المجزرة، ويدعى ثعلبان، بقيصر الروم، فطلب القيصر من الأحباش المساعدة، فعزوا بلاد العرب عام ٥٢٢ م. ثم عام ٥٢٥ م. وهزموا ذو نواس، وقتلوه وأكثر رجاله[١]؛ وأسسوا لهم هناك مملكة دامت حتى ٥٧٠ وهو تاريخ ولادة الرسول (ص)، ومات أبرهة الحبشي بالجدري وأكثر رجاله.

وقد حاول الأحباش تنصير البلاد، فأنشأوا مزاراً دينياً في الجنوب لمزاحمة مكة الوثنية وكعبتها[٢]. وحدث أن تغاضب أبرهة ورجلان من العرب، واحدهما من قبيلة فقيم والآخر من بني مالك، فأعد العدة للحرب، وهيأ الفيلة للحملة على مكة، إلا أنه مات وجيشه بالجدري[٣]. وكان خراب سد مأرب في زمن الحبشان[٤].

د ـ **الجبثيون والقتبانيون والقريّون**: الأمّتان الأوليان تجاريتان، لم يعرفهما العرب. وذهب جلازر إلى أن الأولى يعود أصلها إلى المعينيين وذهب مولر إلى أن القريّن فرع سبئي قائم بنفسه. وذكر جرجي زيدان أنهم من أهل اليمامة، ينتسبون إلى «قريّة» ـ وهو اسم اليمامة القديم[٥] ـ. وكانت ثمة دول أخرى قليلة الأخبار، كالدولة الحضرمية، ويعتبرها العرب من العرب العاربة التي لم تَبِدْ، الا انهم ذابوا في أهل كندة، فصاروا من عدادهم[٦].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤ و ٢٧.
(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٨٣.
(٣) المرجع نفسه، ١/ ٨٤.
(٤) ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ٣٨٣.
(٥) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٨١ ـ ١٨٢.
(٦) تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٢٩ ـ ٣٠.

ب ٢ ـ حضارة عرب الجنوب:

١ ـ **الاجتماع**: كانت كل مملكة تتألف من قصور، ويدعى القصر محفدا، يملكه شيخ أو أمير. وكان بداخل كل محفد معبود، فسموا القصر إمّا باسم صاحبه وإما باسم المعبود. والملك رأس الشجرة الحكومية، نادرا ما يبرح قصره. وقد اهملوا الجيش لقلة فتوحهم، الا عند الجاجة. أما نظام الحكم فكان وراثياً.

وكانت طبقات الأمة أربعة: الجنود، والمزارعون، والصنّاع، والتجار. والزواج عندهم كان مشتركاً، يتزوج الإخوة امرأة واحدة. ولهم أن ينكحوا امهاتهم، ولكن يشترط عليهم دائماً أن يتزوجوا من داخل بيتهم[١].

٢ ـ **الصناعة والزراعة**: لعل أهم ركيزة في ما يمكن أن يسمى صناعة عرب الجنوب هو التعدين. فقد كثرت فيها مناجم الفضة والذهب والأحجار الكريمة. والهمداني عقد فصلاً ذكر فيه طائفة كبيرة من معادن تلك البلاد[٢]، وذكر كذلك الذهب والجواهر والحديد والشزب[٣]. كذلك قامت الصناعة هناك على تحضير بعض المنتوجات التجارية، كالبخور وغيرها[٤]، وهي صناعات خفيفة.

أما الزراعة فكانت مزدهرة. وكثرت البساتين والرياض، ولا سيما

---

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٨٦.
(٢) الهمذاني، صفة جزيرة العرب، طبعة ليدن، ص ١٥٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.
(٤) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٨٧.

حول المدن؛ وأقيمت السدود للري وتخزين المياه[١]، وأشهرها سد مأرب.

٣ ـ **البناء**: اشتهر الجنوبيون بالبناء، فأقاموا المدن مثل مأرب (وتدعى أيضاً سبأ)[٢]، ومعين، وظفار، وصنعاء[٣]، وغيرها... وقد كثرت القصور الفخمة والهياكل[٤]، وأهم تلك القصور قصر غمدان في صنعاء.

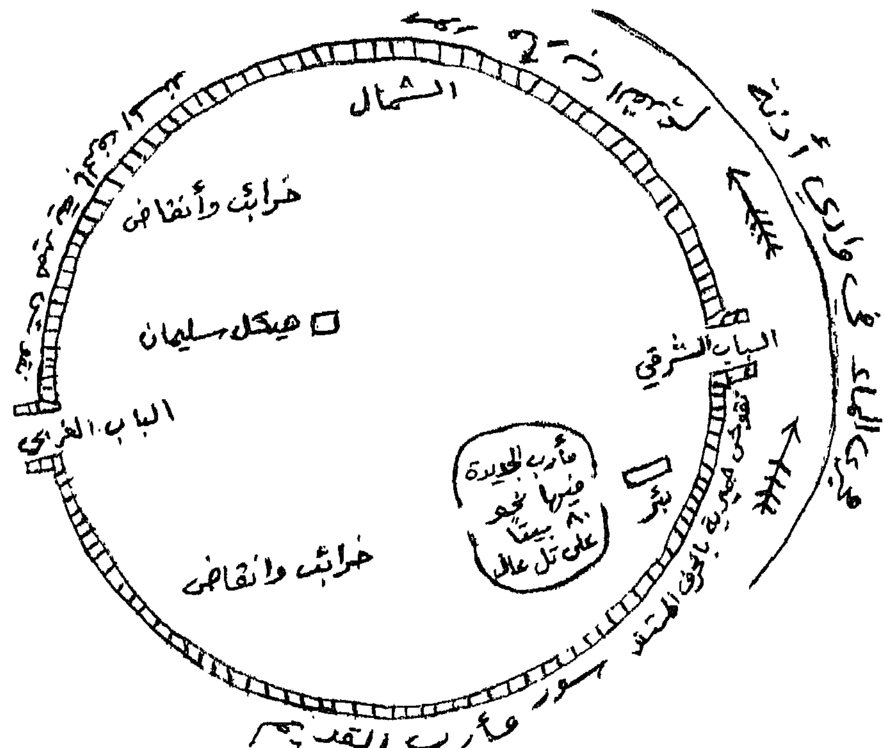
ينسب بناء هذا القصر إلى ملك يمني يدعى يشرح بن يحصب[٥]؛ وكان مؤلفاً من عشرين طبقة تفصل كل سقف عشرة أذرع، والطبقة الأخيرة سقفها من الرخام الشفاف، يمكن للناظر أن يرى من خلاله، فيميز الغراب من الحدأة. وللقصر أوجه أربعة، منها واحد مبني بحجارة بيضاء، وآخر بحجارة سوداء، وثالث بحجارة حمراء. وكان ثمة أسد من نحاس في كل ركن من أركان القصر، حتى إذا ما هبت ريح، ترددت أصداؤها في أجواف تلك التماثيل، فكأنما الأسد يزأر[٦]. وقد قال فيه أليشرح شعراً بقي منه هذا البيت أورده مولر[٧]:

---

(١) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٥.
(٢) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٦٤. وراجع الكلام على مأرب ص ١٩٢. وقد ذكر فيليب حتي أن هذا غير صحيح (تاريخ العرب، ١/ ٧١.
(٣) راجع الكلام على صنعاء في: جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٩٣.
(٤) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٦.
(٥) ياقوت، معجم البلدان، ٣/ ٨١١.
(٦) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٧٤ ـ ٧٥ وجرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.
(٧) المرجع الثاني نفسه، ص ١٩٦.

وانـــــي أنــــا القييـــــل اليشـــــرح
حصنـــك (أي حصنـــت) غمـــدان بمبهـــت

وعمارة المدن أصلها المحافد، وهي تشبه القلاع، وتحيط بها الأسوار. وهذا رسم لبقايا مأرب[1]:



أما السدود فهي جدران ضخمة تقام في الوديان لحجز المياه ورفعها، فتروى الأراضي بها. وعمد اليمينون إلى إقامة السدود لقلة

(١) المرجع نفسه، ص ١٩١.

المياه. هكذا تكاثرت وتجاوزت المئات[١]، منها سد طمحان، وسد سحر، وسد ذي رعين وسد شبام[٢] وهو في صنعاء، وأهمها سد مأرب[٣].

أُقيم هذا السد (ويقال له أيضاً سد العرم) للإفادة من مياه السيول التي تذهب هدراً في فصل الأمطار، فاختير موضعه بين جبلي بلق لحجز المياه. يبلغ طوله من الشرق حوالى ثمانمئة ذراع، وعرضه مئة وخمسين ذراعاً. ويبدو من أنقاضه الباقية أنه كان مبنياً بالتراب والحجارة، تكسو سطحيه طبقة من الحصى كرصيف يمنع انزلاق التراب عندما تتدفق المياه. وعند طرفيه مصارف للمياه من حجارة متينة ضخمة، علوّ كل منها بضعة عشر ذراعاً. ومصرف المياه مُقَام بعوارض ضخمة من الحديد والخشب.

ويعتبر سد مأرب من عجائب الفن الهندسي. ويظهر من النقوش أن باني السد الأول يدعى يثعي أمرا باين وابوه[٤]. وفي النقش الملاصق للجهة اليمنى كلام تفسيره: «أن يثعمر بيين بن سمه علي ينوف وكرب سبأ خرق جبل بلق وبنى مصرفاً رحباً لتسهيل الري». وفي الجهة الأخرى نقش تفسيره: «ان سمه علي ينوف بن ذمر علي مكرب سبأ اخترق بلق وبنى رحباً لتسهيل الري[٥]». وسمه علي هو والد يثعمر، وقد بنى كل منهما حائطاً، وهما من جيل القرن الثامن ق.م. وقد ذهب بعض العرب إلى أن

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٠٠.
(٢) وهو على بعد ثمانية فراسخ من صنعاء، ذكره ياقوت في معجمه (٢/ ٢٤٩).
(٣) راجع تفصيله في: جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٠١ وما بعدها.
(٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٧١.
(٥) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٠٩.

بانِيه لقمان بن عاد[١]، وما هذا من باب الحقيقة.

أما بالنسبة إلى تهدمه فيورد العرب طائفة من الأساطير والقصص الخرافية، منها أن جرذاً قضم الحجارة، وحفر السد، وأوقع منه صخرة برجله، فتدفق الماء، وانفجر السد[٢]. إلا أن المسعودي (مات عام ٩٥٧ م). ذكر أن العوامل الطبيعية أثرت في السد وحجارته، فأضعفته، وكان هذا سبباً في تهدّمه[٣]. ولعل المسعودي قد عرف القصة الحقيقية لدمار السدّ، ولكنه أراد أن يصورها بأسلوب مبتكر، فاخترع قصة الجرذ.

والحق أن هذا السد تصدّع مرات كثيرة ورُمّم، حتى تهدم وأهمل نهائياً في مرحلة سيطرة الأحباش[٤]. والدليل على هذا اكتشاف أثرين فيهما كتابة تذكر تهدّم السد، وتذهب إلى أن ذلك كان خلال المرحلة التي ذكرنا، الأثر الأول يؤرخ بسنة ٥٣٩ م، والثاني ٥٦٥ م[٥]، وقد نشرهما جلازر.

٤ ـ **التجارة**: أسهم موقع اليمن بوسط العالم القديم في تقوية مركزها التجاري، فازدهرت فيها التجارة، ونقلوا منتوجات من الهند إلى مصر وبلاد الفينيقيين والآشوريين، براً وبحراً. وجعلوا لبلادهم مرافىء لاستقبال

---

(١) راجع: المسعودي، مروج الذهب، دار الأندلس، ط ٣، ١٩٧٨، ٥/ ١٦١ وياقوت، معجم البلدان، ٥/ ٣٤.
(٢) المرجع الأول نفسه، ٢/ ١٦٣، وياقوت، معجم البلدان، ٥/ ٣٥ ـ ٣٦.
(٣) المرجع نفسه، ٢/ ١٦٣.
(٤) تروى في خراب السد روايات كثيرة، ذكرنا بعضها. وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه الروايات متأثر بالقرآن وشرحه. راجع: سبأ/ ١٥ وما بعدها.
(٥) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢١٠.

السفن، فعمرت جزيرة مالطة في المتوسط[1]، واشتهرت ظفار. وكان أقوام من البدو يخفرون القوافل براً[2]، ويتوقفون في محطات حتى تصل إلى حيث تقصد.

وبعد انقضاء الطور الأول من حكم الحميريين بدأ نجم دولتهم الجنوبية يأفل شيئاً فشيئا. فقد تحول قسم من تجارتهم مع الهند إلى مصر في الحقبة الهلينية[3] مع البطالسة، فجاءت أساطيلهم التجارية إلى البحر الذي يفصل شبه جزيرة العرب عن مصر، وسقطت زعامة حمير التجارية. واستمرت الحرب التجارية عندما استولى الرومان على زمام الأمور وحذوا حذو البطالسة[4]، واكتشفوا أسرار الخطوط التجارية، وتبُّدل الرياح السموم[5]. فانهار الرخاء في بلدان العرب الجنوبية، وسقطت جميع دولهم التجارية: البتراء وتدمر وبلاد العراق.

٥ ـ **الدين**: كان معظم عرب الجنوب وثنيين في تاريخهم القديم (قبل الميلاد وقبل الفتح الحبشي الأول على وجه التحديد). وآلهة اليمن قريبة من آلهة البابليين[6]. وقد ألهوا السيّارات الفلكية والنجوم[7]. وأخذ عرب الشمال عنهم ديانتهم ـ كما أخذوها عن الآراميين ـ وقد ارتكزوا على ثالوث هو القمر (ودّ عند المعينيين) اكبر الآلهة ويبدوا أن صورته كانت

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٢.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٣.
(٣) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٦.
(٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٧٧.
(٥) المرجع نفسه، ١/ ٧٨.
(٦) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٢١.
(٧) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٢٩.

الحية[1]، والشمس (وهي اللات) وابنتها الزهرة (عثتر أو العزّى) وبنوا الهياكل، وقدموا لها القرابين. ويبدو أنه كان لهم أدب ديني كثير أباده الإسلام. ومن آلهتهم عشتار وايل وبعل وغيرهم. وكان البابليون يعبدون الشمس ويدعونها شاماس[2]، وعشتار أو إيشتار إلهة الخصب التي أقاموا لها احتفالات سنوية أخذوا عادتها عن السومريين[3] ـ وهنا لا بد من الإشارة إلى أن اسطورة ادونيس وعشتروت أو ادونيس وافروديت مشتركة بين معظم شعوب الشرق الأدنى أي بين المصريين، وشعوب ما بين النهرين وسورية، واليونان[4]. كما كان بعض هذه الآلهة قريباً من آلهة الفينيقيين، فقد عبدوا إيل ـ داغون وكان سيد البانتيون، وبعل صنو الإله الأكبر الآسيوي وسيد القمم والأمطار والعواصف[5]، وكان يأتي في الدرجة الثانية مع عشتروت آلهة الخصب[6]. ولعل آلهتهم تتلاقى، بل

---

(١) Alb. Van Den Branden, Histoire de Thamoud, p.69 وفيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٨٠ حيث يشير المؤرخ إلى أن (ود) دعاه السبئيون (المقة) والقتبانيون (عم).

(٢) جورج كونتنو، المدنيات القديمة في الشرق الادنى، ص ٣٧.

(٣) الموضع نفسه، وقارن ص ٣٥.

(٤) كانت اسطورة ادونيس اليونانية تقول إنه ابن ميرا ولد من شجرة صبر هي امه نفسها التي حولتها الآلهة كذلك لتنقذها من أبيها. ولما ولد أدونيس أعجبت أمه بجماله فطلبت من برسيفون أن تربيه، وأغرمت به كما أغرمت به أفروديت. وعاش مدة في مملكة الموت ليعود من بعد إلى الحياة كل عام (بيار غريمال، الميتولوجيا اليونانية، تعريب: هنري زغيب، منشورات عويدات، ط ١، ١٩٨٢، ص ٤٥).

(٥) جورج كونتنو، المدنيات القديمة في الشرق الادنى، ص ٤٢.

(٦) قارن: المرجع نفسه، ص ٤٠ حيث تبدو عشتار مشتركة بين آلهة ما بين النهرين، كذلك الإله شمس (ص ٣٩).

تتشابه، لأنهم من عنصر سامي واحد وبلاد مشتركة في طبيعتها[١]. وقد عرف آلهة الجنوب آلهة أخرى.

أما بالنسبة إلى اليهودية والنصرانية، فقد تسربتا إلى الجنوب. وانتشرت اليهودية في العهد الحميري الثاني بعد غزو الأحباش الأول كما ذكرنا. ولعلها دخلت قبل هذه الفترة: إلا أنها لم تكن منتشرة بعد[٢]. ويذهب بعضهم إلى أنها انتشرت بدافع سياسي هدفه تأمين الطريق والتحالف مع الرومان لإبعاد الخطر الفارسي وحلفائه[٣]. وعندما وجد الحميريون أنفسهم معرضين للخطر أمام تحالف الرومان والأحباش تعاونوا والفرس، ولكنهم اشتهروا بالتهوّد، ولم يكونوا يهوداً حقيقيين[٤]. وعند أوائل القرن السادس الميلادي قويت هذه الديانة وتهوّد ذو نواس واضطهد مسيحيي نجران[٥].

أما المسيحية فقد تسربت بعض مبادئها إلى عرب الجنوب. وكانت أول سفارة نصرانية إلى الجنوب تلك التي أوفدها قسطنطينوس. ويذهب فيليب حتي إلى أن بواعثها كانت سياسية أساسها المنافسة بين الفرس والروم[٦]. وقد أصبحت نجران عاصمة للمسيحية، وفيها كعبة خاصة بالنصارى.

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ١.

(٢) لعلها تغلغلت بعد اضطهاد الرومان في القرن الأول الميلادي. راجع شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٢٨.

(٣) العقاد، مطلع النور، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٦٩، ص ٤٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٠.

(٥) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٤.

(٦) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٨٠ وشوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص ٢٨.

ولما اشتدت المنافسة بين عرب الجنوب، قام ذو نواس بحملته على نجران. ومفاد ذلك أنه غزا نجران وعرض على أهلها التهوّد، فأبوا، فأحرقهم[1] وانجيلهم، وعاد إلى اليمن بعد أن بسط نفوذه. وفر رجل، كان قد نجا من المجزرة، إلى قيصر الروم يستغيث به، فبعث القيصر إلى ملك الأحباش وطلب منه غزو اليمن، فبعث إليها بأرياط أحد قواده. وكانت حملتان ذكرناهما هزم بهما ذو نواس، ثم مات في البحر، وانهارت مملكة اليمن مع الأحباش الذين أسسوا مستعمرة لهم على شاطىء البحر الأحمر حتى ردهم الفرس عام ٥٧٥ م. وحلوا محلهم حتى عام ٦٢٨ م[2].

ـ ج ـ العرب المستعربة:

ينسبون إلى اسماعيل وابنائه، ويقال لهم الاسماعيليون والعدنانيون، وكذلك المعديون والنزاريون[3]، ولكن اللقبين الأولين أشهر. وكان اسماعيل قد تزوج الحنفاء بنت الحارث بن مضاض الجرهمي[4]، فولد منها اثني عشر ذكراً ثم بادت قبيلة جرهم[5]، وانتشر بنو اسماعيل، وأطاعهم الجميع. وما لبث شأن ابنه أدد أن قوي، وفي أيامه هلكت جرهم. ثم وليه عدنان ابنه فمعد بن عدنان، ثم افترق ولده في البلاد.

---

(١) وإلى هذا تشير الآية: ﴿قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود وهم عليها قعود﴾ (البروج/ ٤).

(٢) راجع في هذا: أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٤ و ٢٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ١/ ٢١ و ٢٢٢.

(٥) ويقال إنها بادت بسبب تسلط الذر عليها (الموضع نفسه).

وعدنان أول من وضع الانصاب بمكة. وكان نزار بن معد أعظم بني أبيه، وله اربعة اولاد لعل قبائل الشمال تحدرت منهم وهم: مضر وربيعة وإياد وانمار. وولد أنمار بجيلة وخثعم، وربيعة اسد وضبيعة وكلب وتسعة غيرهم نَسَبُهم إلى غير اليمن؛ هؤلاء كانوا رؤوس قبائل عرب الشمال.

ويبدأ تاريخ العدنانية في القرن التاسع عشر قبل الميلاد[١]، بيد أن أخبارهم قليلة وغير ثابتة. وربما كان هذا مرده إلى أنهم بدو غير ذي حضارة. ولعل ابراهيم تعلم العربية من جرهم وعرب مكة حين نزلها. وقد ذكر ابن سلام (مات ٨٤٦) على لسان يونس أن اسماعيل أول من تكلم بالعربية ونسي لسان ابيه ابراهيم[٢]. وقد ورد ذكر العدنانيين في التوراة باسم الاسماعيليين في مواضع كثيرة[٣]. وتأتي أخبارهم التي رواها العرب متممة لأخبار التوراة، كما يتوافق ظهورهم ومطلع النصرانية. وكانوا قبائل وأمما في تهامة، ومنها انطلقوا إلى الشام والحجاز ونجد. ويقسم النسابون عرب عدنان إلى فرعين كبيرين[٤] هما مضر وربيعة لكل منهما قبائل، أشهرها:

ـ من ربيعة:

١ ـ اسد: وكانوا يسكنون وادي الرمة.

---

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٢٣.

(٢) ابن سلام، طبقات الشعراء، ص ٨، والسيوطي، المزهر، ١/ ٣٢.

(٣) مثلاً: سفر التكوين/ ٣٧/ ٢٥.

(٤) في حين انهم يقسمون قبائل اليمن إلى فرعين: كهلان وحمير. واشهر فروع كهلان: طيء وهمدان وعاملة وجذام والإزد. واشهر فروع حمير: قضاعة وتنوخ وكليب وجهينة وعذرة (أحمد امين، فجر الإسلام، ص ٧، وجرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٢٦ حتى ٢٣٥ و ٢٤١ حتى ٢٤٥).

٢ ـ وائل: وينقسمون إلى بكر وتغلب، وقد تحاربا طويلاً. وإلى بكر ينتسب بنو حنيفة باليمامة.

ـ من مضر:

١ ـ قيس عيلان: ويقال لها قيس أحياناً لشهرتها. وتنسب إليها هوازن وسُلَيْمْ وتسكنان غربي نجد. كما تنسب إليها غطفان ايضاً ومنها عبس وذبيان.

٢ ـ تميم: ومسكنها بادية البصرة.

٣ ـ هذيل: ومسكنها المنطقة الجبلية قرب مكة.

٤ ـ كنانة: ومسكنها جنوبي الحجاز، ومنها قريش.

وكان بين مضر وربيعة عداء شديد. وكان لعرب الشمال أيام كثيرة سنأتي على ذكرها لاحقاً. ومن هذا الفرع العربي وصلنا الشعر، ولذلك عدّ بعضهم عرب الجنوب غير عرب(١).

---

(١) وقيل أيضاً لأنهم كانوا ذوي حضارة ولم يكن البدو كذلك. وكانت لفظة العرب تطلق قديماً على البدو (راجع: فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/٥٣).

الفصل الثالث:

نشأة اللغة العربية

ورد في أخبار المؤرخين العرب أن الحروف العربية أنزلها الله على آدم، فسكبها في طين طبخه وجعله في كتب كثيرة، متعددة الخطوط. وبعد وفاته أغرقت الأرض، وأخذ كل قوم كتابه[١]. وقيل إن اخنوع بن يرد ـ وهو النبي ادريس ـ هو واضعها، وهو أول من خط بالقلم[٢]. وقيل إن اسماعيل أول من كتب العربية وأول من فاه بها[٣]. وقيل غير ذلك من الأخبار التي لا يعوّل عليها للتأكيد على نشأة الكتابة العربية[٤].

وكانت وجهة نظر العرب القدامى أن الخط العربي دخل جزيرة العرب ولم يكن فيها أساساً. ولابن عباس (مات ٦٨٧) في ذلك رواية طريفة يزعم فيها أن ثلاثة رجال وضعوا لغة العرب قياساً على هجاء السريانية، وهم مرامر بن مرة الذي وضع الصور، وأسلم بن سدرة الذي

---

(١) الطاهر أحمد مكي، مصادر الأدب، دار المعارف، ط ٤، ١٩٧٧، ص ٢٩.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ١/ ١١.

(٣) المرجع نفسه، ١/ ٢٢ وأحمد مكي، مصادر الأدب، ص ٢٩ والسيوطي، المزهر، ١/ ٣٢ و ٣٣، وابن سلام، طبقات الشعراء، ص ٨.

(٤) راجع فيها: ديزيره سقال، أخطاء المؤرخين القدامى، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد ١٢، ص ١٣٨ وما بعدها.

فصل ووصل، وعامر بن جدرة الذي وضع الاعجام[1]. وهي رواية خيالية.

أما ما يمكن أن يعوّل عليه فاستنطاق الابجديات التي نشأت حول جزيرة العرب وتطورها. وأول شعب سامي دخل وادي دجلة والفرات هو الأكاديون، فانتصروا على السومريين الآريين، وأسسوا دولة بابل. وقد تأثروا باللغة السومرية، إلا أن لغتهم أصابتها بعض الجراح، لأن ملامح سامية فيها تغيرت، وكذلك بعض التراكيب[2]؛ بيد أنها احتفظت بظاهرة الاعراب[3] التي تتميز بها اللغات السامية. واستمرت اللغة البابلية مع الأشوريين فدعيت لغة بابل واشور[4]. ويرى الرافعي أن هذه اللغة هي أصل اللغات السامية الأخرى، حتى كأن العربية قد نقلت عنها[5]. وخط هذه اللغة هو الخط المسماري وهو مأخوذ عن السومريين[6]. وقد ظلت هذه اللغة معمرة نحو ألفي سنة، خضع لنفوذها الحثيون والليديون والميديون والفينيقيون والعبرانيون[7] وبعض شعوب آسية الصغرى سواهم.

وقد أسس البابليون قوافل تجارية، فكان لا بد لهم من لغة للتفاهم مع الشعوب الأخرى، فكانت اللغة الأكادية. ثم هزم الفرس البابليين،

---

(١) الطاهر احمد مكي، مصادر الأدب، ص ٣٠.
(٢) ابراهيم انيس، اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، ١٩٧٠، ص ٢٥٥.
(٣) الرافعي، تاريخ آداب العرب، ١/ ٧٦.
(٤) ابراهيم انيس، اللغة بين القومية والعالمية، ص ٢٥٦.
(٥) الرافعي، تاريخ آداب العرب، ١/ ٧٥ ـ ٧٦.
(٦) صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط ٧، ١٩٧٨، ص ٤٩.
(٧) ابراهيم انيس، اللغة بين القومية والعالمية، ص ٢٥٦.

ومعهم بدأت تذيع لغة أخرى هي الآرامية[١]، وكانت تنافس البابلية منذ القرن الثامن ق.م[٢].

والآراميون شعب قديم جدا، ذكر في التوراة، وملك بعض الممالك في الشام؛ وقد ظل نفوذهم قوياً حتى بعد سقوط ممالكهم، وكانوا أهل تجارة. وربما كانوا قد هاجروا إلى أرض بابل وآشوار فيما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر ق.م[٣]. وكانت هذه اللغة قوية فرضت نفسها على اخواتها، وبلغت ذروتها بين عامي ٣٠٠ و ٦٥٠ م. ولم تزل حتى قضت عليها اللغة العربية[٤].

ويمكننا أن نعود بأصل اللغة البابلية القديمة ـ أي المسمارية ـ استناداً إلى الاكتشافات الحديثة ـ إلى الأبجدية السينائية التي، بعد تطورها، نقلت إلى الشام، وتحولت حروفاً مسمارية[٥]. وقد كانت هذه الأبجدية حلقة وصل، أو قُل محطة تطور بين الهيروغليفية المصرية القديمة والأبجدية الفينيقية[٦].

وقد انتقلت الأبجدية السينائية إلى الجنوب، واستعملها المعينيون منذ عام ١٢٠٠ ق.م. وانتقلت إلى الساحل الشمالي الفينيقي مع القوافل

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٥٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٥٩.
(٣) صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص ٥١.
(٤) ابراهيم انيس، اللغة بين القومية والعالمية، ص ٢٦٣.
(٥) الطاهر أحمد مكي، مصادر الأدب، ص ٣٢، وفيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٩٣.
(٦) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٩٣.

التجارية. والنقوش الصفوية التي عثر عليها في ناحية الصفا، والنقوش الثمودية واللحيانية بالعلا والحجر شبيهه بالأبجدية الجنوبية العربية، إلا أن لغتها شمالية، قريبة جداً من لغة الضاد. والرُّقُم الثمودية تطور للرّقم اللحيانية[1]. كما أن كتابة الجنوب بقيت حية في اللغة الحبشية. واللحيانيون فرع ثمودي استولى على الحجرِ مدينة الانباط.

وأقدم رسم عثر عليه كان مشتقاً من المسند اليمني، وهو، بدوره، مشتق من الخط الكنعاني. والخطوط اللحيانية والثمودية والصفوية شبيهة جداً بالمسند، وتتجه من اليمين إلى الشمال. بل إن الخط الثمودي اتجاهاته غير ثابتة، إلا أنه غالباً ما يتجه من أعلى إلى أسفل. والخط الصفوي، كذلك، اتجاهاته مختلفة، من الشمال إلى اليمين، ومن اليمين إلى الشمال، والحركات الصغيرة فيه وحروف المد مغفلة، وبعض حروفها يرمز إلى أكثر من صوت[2].

والرقم الثمودية والصفوية واللحيانية عربية، لأن خواصّها اللغوية قريبة من خواص لغة القرآن[3]، مع بعض الاختلاف في اداة التعريف ـ إذ إن اداة التعريف فيه هي (ها) ـ، وبعض الاختلافات الأخرى. وهذه الرقم تمثل مرحلة من مراحل تطور اللغة العربية ونشوئها.

وعلى وجه العموم، فإن في لغة الانباط والتدمريين قرابةً من اللغة

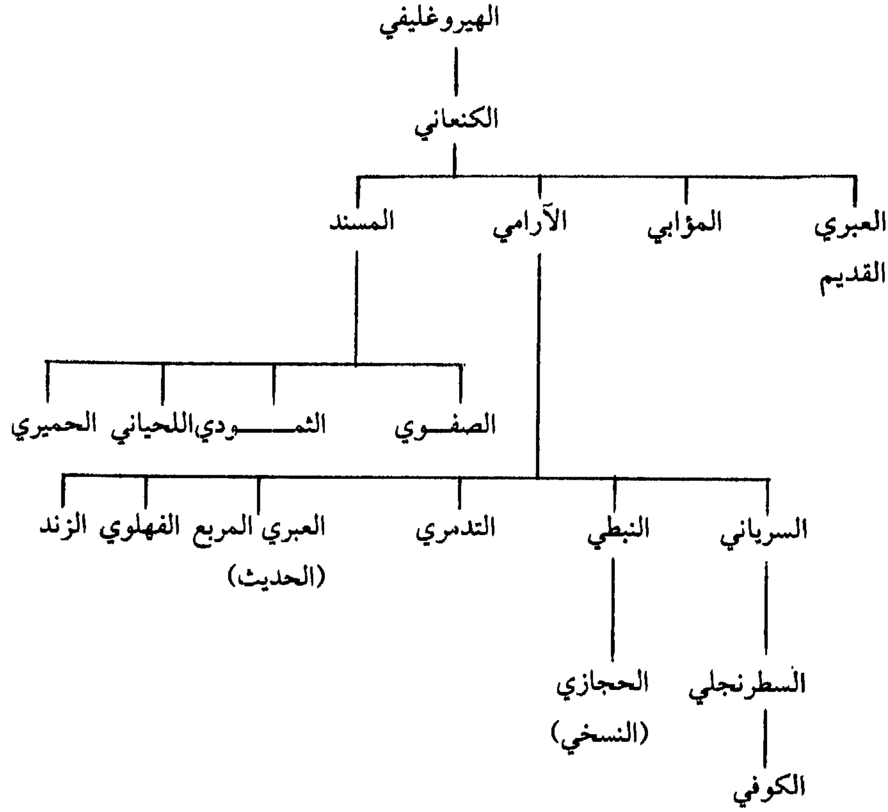
---

(١) المرجع نفسه، ١/ ٩٤، ولكننا نشير إلى أن الرُّقُم الثمودية تخالف الرقم اللحيانية: Alb. Van Den Branden, Histoire de Thamoud, p.21.

(٢) الطاهر أحمد مكي، مصادر الادب، ص ٣٤.

(٣) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٣.

العربية[١]، وقد أوردنا نقشاً نبطياً في الصفحات السابقة بالخط العربي. ويبدو لنا أن الحرف النبطي تطور، فانبثق منه الحرف الحجازي، والحرف السرياني تطور واعطى السطر نجلي فالكوفي. وفيما يلي شجرة اللغات:



وسوف نستعرض بعض النقوش لنرى كيف تطور الخط العربي وتحددت أشكاله. أما صبحي الصالح فيقسم اللغات السامية إلى قسمين رئيسين: الشرقية والغربية، والأولى هي اللغات البابلية ـ الآشورية

(١) راجع: جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٠٦ حتى ١١١ و ١٢٢ ـ ١٢٣.

(الأكادية)، وهي اللغات المسمارية المأخوذة عن السومريين[١]. والثانية وهي قسمان: الشمالية والجنوبية. ومن اللغات الشمالية الكنعانية، لغة القبائل العربية النازحة من جنوبي غربي بلاد العرب؛ وتشتمل هذه اللغة على الأجريتية وهي أقدمها، وعنها أخذ العالم الأبجدية، والكنعانية القديمة، والمؤابية لغة نسل لوط، والفينيقية التي خرجت من موطنها واستقرت في حوض المتوسط، والعبرية وهم أهم اللهجات الكنعانية[٢].

أما الآرامية، فالقبائل الناطقة بها نزحت من شبه جزيرة العرب إلى أرض البابليين، ثم فرضت لغتهم نفسها على أخواتها[٣] مع كل لهجاتها.

والشعبة الأساسية هي الشعبة الجنوبية المسماة اليمنية القديمة أو القحطانية[٤]، ويقال لها أيضاً السبئية. وأهم اللهجات العربية المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية واللغات السامية الحبشية[٥]. لكن السبئية هي اللغة التي غلبت من بينها. وكان خطها المسند، لأن حروفه تستند إلى ما يشبه الأعمدة.

أما لغة العرب البائدة فأهم لهجاتها الثمودية المنسوبة إلى ثمود، والصفوية المنسوبة إلى منطقة الصفا، واللحيانية المنسوبة إلى قبائل

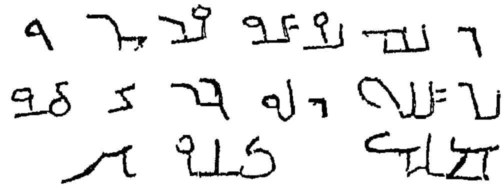
---

(١) صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص ٤٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٥١.
(٤) المرجع نفسه، ص ٥٢.
(٥) المرجع نفسه، ص ٥٢ ـ ٥٣ وتدعى لغة الجنوبيين السبئية والمعينية والحميرية، وهي ٢٩ حرفاً.

لحيان[1]. ويرى أكثر العلماء أن الخط الكوفي متحدر من النبطي.

ويرى عمر فروخ أن اللغة العربية انفصلت عن السامية مع اللغات الشمالية قديماً، وانفصلت بعدها من المجموعة الشمالية، ثم يذهب إلى أن اللغة العربية قد تكون هي اللغة السامية الأم، وما تبقى لهجات منها[2].

والنقش الأول الذي نستعرضه، نبطي الخط، آرامي اللغة، عثر عليه جنوبي حوران في أم الجمال، وهذا نصه:



وهذه ترجمته بالحروف الحديثة:

١ ـ دنه نفسو فهرو

٢ ـ بَرْ شُلى ربو جذيمت

ملك تنوح

أما معناه فهو:

١ ـ هذا قبر[3] فهر

٢ ـ ابن سلى مربي جذيمة

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥٦ وقارن: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٣.

(٢) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط ٣، ١/٣٥ ـ ٣٦.

(٣) كلمة نفس بالعربية البائدة تعني قبر.

٣ ـ ملك تنوخ

ويرجح المستشرق ليتمان والكونت دي فوجيه أنه يعود إلى سنة ٢٧٠ م. والنقش الثاني هو نقش النمارة الذي يرد فيه اسم الملك امرىء القيس بن عمرو (مات ٣٢٨ م). وهو ملك الحيرة، وتلك كلماته:

١ ـ تي نفس مر القيس عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج

٢ ـ وملك الأسدين ونزرا وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجا

٣ ـ بزجى في حبج نجرن مدينة شمر وملك معد ونزل بنيه

٤ ـ الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ ـ عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسول بلسعد ذو ولده

ويترجم إلى العربية كالآتي:

١ ـ هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج (أو: اسر التاج)

٢ ـ وملك الأسدين ونزار وملوكهم وشتت مذحج بالقوة وجاء

الى نزجى في حبج نجران مدينة شمّر، وملك معدا وأنزل (ولّى) بنيه

٤ ـ الشعوب ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ ـ في القوة (العَكَد) هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول (كانون الأول) ليسعد الذين ولدهم

ونلاحظ أن الكاتب بدأ باسم الإشارة (تي) المؤنث، واستخدم (ذو) بمعنى الذي وهو اسم الموصول الذي كانت تستعمله قبيلة طيىء. كما

حذفت حروف المد التي تمثلها الألفات وكان العرب لا يثبتونها[1]. وهذا النص يمثل طورا انتقالياً مهماً من أطوار اللغة العربية. ونقش زيد الذي في جنوب ـ شرق حلب أحدث منه، يعود إلى عام ٥١٢ م. وصورته العربية هي التالية:

١ ـ م الاله سرجو بر أمت منفو وهنيء بر مر القيس

٢ ـ وسرجو بر سعدو وبسترو و(شر) يحيو بتميمي

أما نقش حوران اللجا فحروفه أثبت وأقرب إلى الرسم العربي، وهو أحدث عهداف بنصف قرن تقريباً من النقش السابق، ونصه هو التالي:

١ ـ انا شرحبيل بن ظلمو (= ظالم) بنيت ذا المرطول (= الكنيسة)

٢ ـ سنت ٤٦٣ بعد مفسد

٣ ـ خيبر

٤ ـ بعم (= بعام)

وهو أول نقش كامل بكلماته.

نرى، من كل ما استعرضنا، أن الخط العربي نشأ وتطور في الحجاز. وقد نشأ من الخط النبطي، وراح يتطور تدريجياً حتى استقر شكله في مطلع القرن السادس الميلادي.

---

(١) راجع الإشارات حول النص في: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٥ ـ ٣٦.

الفصل الرابع:

العصر الجاهلي

١ ـ تحديده:

العصر الجاهلي بعيد في الزمان، يشمل أطوار شبه الجزيرة العربية القديمة قبل الميلاد وبعده. وقد يتبادر إلى ذهننا أن لفظة الجاهلية تعني الجهل. الا أننا إذا نظرنا إلى حياة العرب ككل، ادركنا سريعاً أن هذا اللفظ غير ما نريد ولا سيما أن عرب الجنوب كانت لهم حضارة راقية كما ذكرنا. والمعنى الثاني لهذه اللفظة قد يأتي على سبيل الدلالة على الغباء أو قلة الذكاء. والعربي كان بطبعه ذكياً، بعيداً جداً عن الغباء.

بيد أن هذه اللفظة وردت عند الجاهليين. قال عمرو بن كلثوم (مات حوالي ٥٧٠) في المعلقة:

أَلاَ لا يَجْهَلَـــــنْ أَحَـــدٌ علينـــا
فَنَجْهَــلَ فــوق جَهْــلِ الجــاهلينــا(١)

ومن الواضح هنا أن لفظة الجاهليين تعني الطيش والسفه من جهة، وهي، من جهة أخرى، تعني الجهل الذي يناقض بمعناه الحلم، لا الجهل

---

(١) الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص ١٧٨.

الذي يناقض العلم[1].

إلا أننا إذا ربطنا هذه اللفظة بالمعنى الديني أدركنا أبعادها. فالإسلام كان تأسيساً وبداية هي أم البدايات. بل إنه النهاية التي صارت بداية: نهاية عصر وفاتحة عصر. من هنا، فنحن «نعرف الجاهلية بالإسلام[2]». وانطلاقاً من هذا المفهوم يمكن أن نقول إن العصر السابق لظهور الإسلام قد سمي جاهلية لأنه جهل هذا الدين، فعكف ابناؤه على عبادة الأصنام والأوثان، واتصفوا بالغضب والطيش والنزق والسفه[3]. فللّفظة، هنا، مدلول ديني قبل كل شيء. وقد اتخذت هذا المدلول انطلاقاً من القرآن الكريم: ورد في سورة البقرة: ﴿**قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن اكون من الجاهلين**﴾[4] فالجهل هنا جهل ديني. وورد في سورة الأعراف: ﴿**خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين**﴾[5]، والجهل هنا يدل على السفه والغضب والطيش. وقد قال النبي لأبي ذر معيّراً إياه: «إنك امرؤ فيه جاهلية»[6].

---

(١) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٧٣.

(٢) ادونيس، الثابت والمتحول، دار العودة، ط ١ ١٩٧٤، ١/ ٣٥. وقد وردت لفظة الجاهلية أربع مرات في القرآن الكريم: ﴿**يظنون باللهِ غيرَ الحقّ ظَنَّ الجاهلية...**﴾ (آل عمران/ ١٥٤)، و ﴿**أَفَحُكْمَ الجاهلية يبغون...**﴾ (المائدة/ ٥٠)، و ﴿**وقرنَ في بيوتكنّ ولا تَبرَّجنَّ تَبرُّجَ الجاهلية الأولى...**﴾ (الأحزاب/ ٣٣)، و ﴿**إذْ جَعَلَ الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية...**﴾ (الفتح/ ٢٦).

(٣) راجع: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٩ وعمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٣٥.

(٤) البقرة/ ٦٧.

(٥) الاعراف/ ١٩٩.

(٦) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٩.

والباحثون في الأدب العربي يقفون بأبحاثهم الشعرية في الحقبة الممتدة بين مئة وخمسين ومئتي عام على الأكثر قبل الإسلام. قال الجاحظ: «وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسلك الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام[(١)]».

وانطلاقاً من هذا، يمكن أن نقسم العصر الجاهلي إلى قسمين:

١ ـ **جاهلية بعيدة**: وهي التي عاشت فيها الأمم البائدة بخاصة، وعرب الجنوب خلال مرحلة ازدهارهم الحضاري.

٢ ـ **جاهلية قريبة**: وهي التي ذكرها الجاحظ.

والجاهلية البعيدة مجهولة الأخبار، إلا ما عثر عليه من رقم ونقوش وأخبار، ذكرنا بعضها. كما أن أخبار الشعر لم تردنا إلا من الجاهلية الثانية. ويؤرخ أقدم الشعر بما قبل عام ٥٦٥ م، وربما بشعر امرىء القيس الا أن هذا الشاعر يذكر من قصيدته التي مطلعها:

لِمَـــنِ الـــدِّيـــارُ غشيتَهَـــا بِسَحَـــامِ
فعمـــايتيـــنِ فَهضْـــبِ ذي اقـــدامِ[(٢)]

يذكر أن ابن خذام قد وقف قبله على الاطلال وبكى واستبكى، يقول: [(٣)]

---

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان، ١/ ٥٤ وقارن: ايليا حاوي، موسوعة الشعر العربي، ١/ ٣٢.

(٢) ايليا حاوي، موسوعة الشعر العربي، ١/ ٢٩٠.

(٣) ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص ٢١.

عــوجــا علــى الطلــل المحيــل لأننــا

نبكــي الــديــار كمــا بكــى إبــن خــذامِ

ولم يصلنا شيء عن ابن خذام هذا. من هنا نعتبر أن الجاهلية الأولى ما زالت مغمورة. وسنقف في بحثنا على الجاهلية الثانية وأخبارها.

٢ ـ النفسية العربية:

لا يمكن أن نفصل دراسة النفسية العربية عن الطبيعة التي نشأت فيها وتأثرت بها. فإن الجغرافيا برغم اهتمامها قبل كل شيء بالتضاريس الأرضية، لم تتمكن قط من إهمال السكان الذين يعيشون في هذه البيئة الطبيعية أو تلك وبما يبديه هؤلاء السكان من طبائع نفسية[١]. وقد ذهب ابن خلدون هذا المذهب مورداً نواميس ومبادىء عن الجغرافيا الإنسانية[٢]. وانطلاقاً من البيئة وقساوتها نفهم قساوة نفس العربي ورغبتها في البقاء بعيدة عن التغير وفي كل ما يستمر على وتيرة واحدة[٣]. ومرد

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب.

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون: في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من الأشجار والأنهار والأقاليم، ص ٤٤ ـ وفي أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي، ص ٤٩ ـ ٨١ ـ وفي المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم، ص ٨٤ ـ ٨٥ ـ وفي أثر الهواء في أخلاق البشر، ص ٨٦ ـ ٨٧ وغيرها...

(٣) وفي هذا قال تميم بن مقبل (مات حوالى ٦٦٥):

مَــا أَطْيَــبَ ٱلعَيْــشَ لَــوْ ٱلفتــى حَجَــرٌ

تَنْبُــو ٱلحَــوَادِثُ عَنْــهُ وَهْــوَ مَلْمُــومُ

(تميم بن مقيل، ديوان تميم بن مقيل)، تحقيق عزة حسن، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٢، ص ٤٧٣ وأدونيس، مقدمة للشعر العربي، دار العودة،=

ذلك إلى العلوق بالأرض، وخوفه من المجهول، لأن الموت يترصده في كل مكان وفي كل لحظة، فيفسد حياته، وما من خلاص ما ورائي يمكن أن يبعد عنه هذا الكابوس يقول طرفة بن العبد (٥٣٨ ـ ٥٦٤):

أرى العيــش كنــزاً نــاقصــاً كــل ليلــةٍ
ومــا تنقــص الأيــام والــدهــر ينفــدِ[١]

فالجاهلي، بعامة، علوق بالأرض، مرتهن لها، وهو مرتبط بعبثية المصير الذي يعانيه[٢]. من هنا بحث عن تأكيد وجوده فكانت مسألة الفروسية أعمق تفسير لهذا التأكيد على الوجود. وقد ظل الوجدان الجاهلي يخوض مع الدهر معركة رهيبة مستمرة: «كان القحط هو الحادث الرتيب المهدد، هو الصورة الفاجعة المترددة، من حين إلى آخر، على حياة العربي. وهي الصورة التي تشخّص تَحَقُّقاً مستمراً لفعل الدهر. وكان الفقر والذل، والموت، هي علامات الدهر أيضاً، يغرسها هنا وهناك في حياة الفرد والجماعة. كان العربي يكافح في صورة الشر اليومي، إرادة الشر الكلية التي تخترم الكون من بدايته حتى نهايته، ولذلك كانت نشوة الشاعر بالبطولة والفروسية، بالكرم، والانتصار، بالحب والحرية والفن. كانت هذه النشوة علامة النصر الميتافيزيقي على الدهر[٣]». وعندما يقول تميم بن مقبل: «ما أطيب القيس لو أن الفتى حجر». فهو يعبّر عن رغبة الجاهلي في الانتصار على الزمن لأنه يمثل التغيير، في حين أن الحجر يمثل الثبات.

= ط ١. ١٩٧١، ص ١٣ و ص ٣٤).

(١) ديوان طرفه بن العبد، دار بيروت، ١٩٧٩، ص ٣٤.

(٢) أدونيس، مقدمة للشعر العربي، ص ١٤.

(٣) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١/ ٢٩.

والفروسية، في هذا المجال، وسيلة استعراض، بالنسبة إلى الذات، في عالم ضاغط يغيبها ويقضي عليها. إنه يطمس الأنا في كيان الآخر. من هنا، فاضت نرجسية الجاهلي على ما حولها، وحاولت أن تستعلي على المكان بالفروسية التي تصعّد صورة الأنا. يقول عنترة (٥٢٥ ـ ٦١٥ م):

هَـلاَّ سَـأَلْـتِ ٱلخَيْـلَ يـا ابْنَـةَ مَـالِـكٍ
إنْ كُنْـتِ جـاهِلَـةً بِمَـا لَـمْ تَعْلَمِـي...
يُخْبِـرْكِ مَـنْ شَهِـدَ ٱلـوَقيعَـةَ أَنَّنـي
أَغْشَـى ٱلـوَغَـى، وَأَعِـفُّ عِنْـدَ ٱلمَغْنَـمِ[١]

هكذا كان الشاعر العربي، حتى في أثناء حبه، فارساً جباراً. ومن الاحساس بالمكان ووطأته خرج الشعور المزدوج عند الجاهلي: الفروسية والشعور بالقوة، والموت والشعور بالخوف والسقوط[٢]. فهو مغامرة يسيطر بها على المكان، ويغتصبه اغتصاباً[٣].

وأكثر فخر الفارس عندما ينتصر على آخر يماثله قوة. فهو يفخر بوسيلة استخدامه قوته[٤]. يقول عنترة:

وَمُـدَجَّـجٍ كَـرِهَ ٱلكُمَـاةُ نِـزَالَـهُ
لاَ مُمْعِـنٌ هَـرَبـاً مُسْتَسْلِـمِ

---

(١) ديوان عنترة، دار صادر، ط ٢، ١٩٩٢، ص ٢٥.
(٢) أدونيس، مقدمة للشعر العربي، ص ١٥.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٦.
(٤) المرجع نفسه ص ١٧.

جَـــادَتْ لَـــهُ كفِّـــي بِعَـــاجِـــلِ طَعْنَـــةٍ
بِمُثَقَّـــفٍ صَـــدْقِ ٱلكُعُـــوبِ مُقَـــوَّمِ[1]

فهو لا يتصيّد إلا أقوى الرجال ممّن خافهم الأبطال، وكره الفرسانُ نزالهم. ويلخص أدونيس شخصية الفارس الجاهلي، فيقول «شخصية الفارس كما يقدمها لنا الشعر الجاهلي، ملتزمة وحرة، متعاونة ومتفردة، جوّابة ومقيمة في آن. ينتظم الفارس في الحياة اليومية وسط الفوضى والمصادفة، وينسجم وسط امتداد لا شكل له. في الليل يأسره النهار، وفي النهار يحنّ إلى وسادة الحبيبة. إنه عشير الوتد والخيمة، صديق الريح والشمس والمسافات. في أعماقه شيء دائم يعذّبه، يثيره، يدفعه، ولا شيء يرويه أو يرضيه أو يحدّه. إنه رقّاص بشري: فليست فروسيته الآتية الذاهبة إلا نوعاً من الثأر لنفسه المحدودة، في نهاية المطاف، من هذه الطبيعة حوله من فضائها الهائل، وفراغها المهيب[2]».

هكذا تقوم نفسية الفارس الجاهلي على نقيضين: الذات الخاضعة للمكان، والذات الرافضة ضمنياً، والتي تبحث عن تأكيد وجودها في الخارج، وتحويل النرجسية إلى فعل كينونة يقضي، بطريقة غير مباشرة، على الصيرورة. إنه يحاول أن يقبض على الزمن السيّال الهارب. وفي هذا الفعل تتجسد مأساة البطولة الجاهلية، لأنها بطولة الذات الأرضية الشبيهة بالوجودية. إنها مصارعة مع القدر والعدم في أعنف مراحله. والعنف «هو الدال على المرغوب أو المشتهى المطلق، هو الدال على الاكتفاء الذاتي الذي يشبه اكتفاء المطلق بذاته. وتمجيد الشاعر للعنف ليس... إلا

---

(١) ديوان عنترة، ص ٢٦.

(٢) أدونيس، مقدمة للشعر العربي، ص ١٨ ـ ١٩.

تمجيداً للذات ولاكتفائيتها[١]».

من هنا فحياة الجاهلي حياة صراع. والشاعر الجاهلي استطاع بلا وعيه أن يطور صور المحيط إلى رموز في الحياة، «فإذا الناقة المقتحمة لأهوال المفازات... تتحول إلى رمز الإنسان الفارس السائح في عالم مُهَوّل مُعَاد، وإذا بأسراب الظباء تتطور إلى رموز المغاني والحسان[٢]». لقد كان الصراع «أساس السلوكية الجاهلية. وكان... البرهانَ الإيجابي الوحيد ضد تحديد العدم[٣]». هكذا، نستطيع القول بأن الشاعر الجاهلي كان أول التيارات الرافضة، إلا أن رفضه كان يتذبذب بين اللا والنعم، بين رفض الخضوع للزمن، والقناعة بحياته الاجتماعية. إنه يشبه الرفض الوجودي، وإنْ من غير خلفية فلسفية، لأنه صراع مع العدم المتربّص في الفيافي والمفازات.

ومن خلال ظاهرة الفروسية ندرك عمق الحساسية الشعرية عند الجاهلي. فالمكان بأشيائه وأبعاده يعكس التراجيديا العربية الجاهلية، التي تنعكس بدورها في تشكيل الطبيعة العربية النفسية القديمة. ومن خلال هذا، نفهم معنى الصراع الدائر لأن التجربة الجاهلية تقوم على أساس مصارعة الدهر، كما ذكرنا[٤].

ولقد كان العربي القديم يحيا ويعاني بأعصابه أكثر منه بعقله[٥]. وإذا

---

(١) أدونيس، كلام البدايات، دار الآداب، ط ١، ١٩٨٩، ص ١٠١.
(٢) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١/ ٢٨.
(٣) المرجع نفسه، ١/ ٣٤.
(٤) المرجع نفسه، ١/ ٢٨.
(٥) محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، دار المعارف، مجهول التاريخ، ص ٦٦.

راجعنا سيرة عمرو بن كلثوم تبيّننا هذا الأمر[1]. إنه الإنسان ـ الطفل الذي يصور طفولة الحياة العربية، ويؤخذ بالعظيم من الأشياء. فالطفل يهتم بالحجم، بالكمّ لا بالمحتوى، وكذلك الجاهلي. ولعل ظاهرة البطولة تفسير لهذا الواقع. فالطفل تبهره القوة ويؤخذ بها، تماماً كالجاهلي. وإذا استعرضنا معلقة عمرو بن كلثوم تبيّننا هذا. فهي صراخ شبيه بصراخ الأطفال، وفي أحسن الأحوال المراهقين، عندما يغضبون. يقول، مثلاً:

أَبَــــا هِنْــــدٍ فَــــلاَ تَعْجَــــلْ عَلَيْنَــــا
وَأَنْظِــــرْنَــــا نُخَبِّــــرْكَ ٱليَقِينَــــا
بِــــأَنَّــــا نَــــوُرِدُ ٱلــــرَّايَــــاتِ بِيضــــاً
وَنُصْــــدِرُهُــــنَّ حُمْــــراً قَــــدْ رَوِينَــــا[2]

(١) يُروى أن هذا الشاعر «انتُدب لتمثيل قبيلته في مؤتمر الصلح الذي عقد في بلاط عمرو بن هند، للتوفيق بين تغلب وبكر. وقد حكم الملك لخصمه الحارث بن حلّزة، لشدة ما لقبه من عَنَت الشاعر وعنجهيّته وفخره بقومه، وتفوقهم في الحروب، غير هيّاب من هيبة الملك، ولا حرج من قوّته وصولته. وقد أراد الملك إذلاله، فأوعز إلى والدته أن تدعو أم عمرو لزيارتها وتتعمّد إذلالها، لتثير الشاعر، ويرى ما يكون من أمره. ولما طلبت من والدة الشاعر أن تناولها طبقاً من أطباق الطعام، ثارت ثائرتها واستنجدت بابنها المقيم مع عمرو بن هند، فعاجله الشاعر بسيف معلّق في الرواق، فصرعه، ورحل مع قومه. ومع أن هذه الحادثة مشبعة بجو الغرابة والإثارة، فإنها تدل على قوة عمرو، واستهانته بأقدار الناس، حتى الملوك منهم، وإنّ شعوره ببأس بني قومه كان يدفعه إلى الهوس والتهوّر». (ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١/٤١٧. وقارن: ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار صعب (عن طبعة بولاق)، ٩/١٨٢).

(٢) المرجع نفسه، ١/٤٢٣.

تَــرَكْنَــا ٱلخَيْــلَ عَــاكِفَــةً عَلَيْــهِ
مُقَلَّـــدَةً أَعِنَّتَهَـــا صُفُـــونَـــا
مَتَــى نَنْقُــلْ إِلَــى قَــوْمٍ رِحَــانَـا
يَكُــونُــوا فِــي ٱللقَــاءِ لَهَــا طحِينَـا
تكــونُ ثِفَــالُهَــا، شَــرْقِــيَّ نَجْــدِ
وَلُهْـــوتُهَــا قُضَــاعَــةَ أَجْمَعِينَـا
نَــزَلْتُــمْ مَنْــزِلَ الأَضْيَــافِ مِنَّــا
فَــأَعْجَلْنَــا ٱلقِــرَى، أَنْ تَشْتِمُــونَــا[1]
نُطَــاعِــنُ مَــا تَــرَاخَــى ٱلنَــاسُ عَنَّــا
وَنَضْــرِبُ بِــٱلسُيــوفِ إذا غُشِينَــا
بِسُمْــرٍ مِــنْ قَنَــا ٱلخَطِّــيِّ لُــدْنٍ،
ذَوَابِـــلَ، أَوْ ببيــضٍ يَخْتَلِينَــا
كَــأَنَّ جَمَــاجِــمَ ٱلــأَبْطَــالِ فيهــا
وُسُــوقٌ بِــٱلأَمَــاعِــزِ يَــرْتَمِينَــا
نَشُــقُّ بِهَــا رُؤُوسَ ٱلقَــوْمِ شَقًّــا،
وَنَخْتَلِــبُ ٱلــرِقَــابَ فَتَخْتَلَيْنَــا
وَإِنَّ الضَغْــنَ بَعْــدَ الضَغْــنِ يَبْــدو
عَلَيْــكَ، وَيُخْــرِجُ ٱلــدَاءَ ٱلــدَفِينــا
وَرِثْنَــا ٱلْمَجْــدَ قَــدْ عَلِمَــتْ مَعَــدٌّ
نُطَــاعِــنُ دُونَــهُ، حَتَّــى يَبِينَــا[2]

---

(١) المرجع نفسه، ١/ ٤٢٤.
(٢) المرجع نفسه، ١/ ٤٢٥

نَجُـــدُّ رُؤُوسَهُـــمْ، فـــي غَيْـــرِ بِـــرٍّ،
فَمَـــا يَـــدْرُونَ مَـــاذَا يَتَّقُـــونَـــا

كَـــأَنَّ سُيُـــوفَنَـــا، مِنَّـــا وَمِنْهُـــمْ،
خُضِبْـــنَ بِـــأُرْجُـــوَانٍ، أَوْ طُلِيَنَـــا(١)

هذه الأبيات ضجيج أصوات طفولية (أو مراهقية) تتوعد وتتشنّج، ويأخذها الغضب. لذلك نجد أن الشعر الجاهلي لم يحفل بالصورة الرامزة التي تكشف عن حقائق مستترة إلا نادراً جداً(٢). إنها نفسية الطفل التي تلتقط، ولكنها ليست قادرة على أن تكوّن بعد، وهذا سبب انعدام الملاحم في الشعر الجاهلي، تضاف إليه أسباب أخرى كفعل الحياة المتقطعة في حياة معظم الشعراء، وسوى ذلك. فالطفل يوجز، ولا يطيل. وهو يؤخذ بالمبالغات لعظمتها. يقول امرؤ القيس، مثلاً واصفاً حصانه:

مِكَـــرٍّ مِفَـــرٍّ مُقْبِـــلٍ مُـــدْبِـــرٍ مَعَـــاً
كَجُلْمُـــودِ صَخْـــرٍ حَطَّـــهُ ٱلسَّيْـــلُ مِـــنْ عَـــلِ(٣)

ويقول عمرو بن كلثوم:

مَـــلأْنَـــا ٱلبَـــرَّ حَتَّـــى ضَـــاقَ عَنَّـــا
وَظَهْـــرُ ٱلبَحْـــرِ نَمْـــلأُهُ سَفِينَـــا

---

(١) المرجع نفسه، ١/ ٤٢٦.
(٢) عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة ودار الثقافة، مجهول التاريخ، ص ٨٩.
(٣) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١/ ٢٣١.

إِذَا بَلَــــغَ ٱلفِطَـــــامَ لَنَـــــا صَبِـــيٌّ
تَخُــرُّ لَــهُ ٱلجَبَــابِــرُ سَــاجِــدِينَــا(١)

الشاعران هنا يدلان على عظمة الشيء بالحجم والمبالغة. والحصان الذي يصلنا الخبر عنه في بيت امرىء القيس لا يوجد إلا في خيال صاحبه؛ وحجم القبيلة وقوة أفرادها في بيتي عمرو بن كلثوم ليسا إلا انعكاساً لخياله وتضخيمه الأمور. ومثل هذا الخيال مألوف جداً عند الأطفال.

أما انعكاس المكان في شخصية الجاهلي فيتجلى من خلال التكرار ـ تكرار المشاهد والأشياء نفسها. فالشعر الجاهلي شعر التعبير الفوتوغرافي (النقليّ) عن الصحراء ـ شعر اجترار الصور وإن كان التفصيل يدخلها وبعضُ التغييرات، إلا أنها سطحية بالنسبة إلى الجوهر(٢).

وقد انعكست الحياة الجاهلية المتقطعة في نفسية الإنسان كما اشرنا فكان الشعر الجاهلي أبياتاً متقطعة، لا رابط عضوياً بينها. إنها أدب البيت، بفعل الحياة التي لا تعرف لها استقراراً، حياة الحل والترحال، والتنقل المستمر، والصراع الدائم مع الطبيعة وقسوتها وجفافها.

وخلاصة القول، إن النفسية الجاهلية نفسية مضطربة تجتمع فيها متناقضات الوجود المحيط. إنها نفسية الطفل في أولى تجلياتها، ومن خلال هذا يمكننا أن نفهم قول بعضهم إن الجاهلي، البدوي بخاصة،

---

(١) المرجع نفسه، ١/ ٤٣٣.

(٢) يقول زهير بن أبي سلمى (مات حوالى ٦٠٩ م) في هذا:

مـــــا أرانــــا نقـــــولُ إلاَّ مُعَـــــارَا
أَو مُعَـــــاداً مــــن لفظنــــا مَكْـــــرُورَا

(أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٤٢).

أقرب إلى الخير منه إلى الشر[1]. إنها الأنا التي تبحث عن تأكيد نرجسيتها بوجه الزمن انتقاماً من المحيط الضاغط.

٣ ـ البدو وقبائلهم/ الحياة القبلية والمجتمع:

كان الطابع البدوي هو الأغلب الأعم في الجاهلية، على الرغم من تحضّر قسم كبير من عرب الجنوب، وبعض عرب الشمال. فمعظم الشماليين بدو رُحّل[2]، يتناثرون هنا وهناك في شبه الجزيرة، بطوناً وقبائل. وتنقسم قبائلهم قسمين كبيرين: القبائل الشمالية، وهي العدنانية، والقبائل الجنوبية، وهي القحطانية، وقد أتينا على ذكر أهم فروعها.

ويختلف البدوي عن الحضري في مسألة الاستقرار. فالحضري، كما رأينا عند عرب الجنوب ـ استقر في بقعة معينة وفّرت له أسباب المكوث فيها، فاستغلّ الأرض، وعمل في الزراعة والحِرَف، وأنشأ المدن. أما البدوي فقد ظل في تنقُّل دائم، بحثاً عن الماء والكلأ، فلم يستقرّ، بل سعى وسط المحيط القاسي للوصول إلى الربوع الخضراء التي تتيح له أسباب البقاء، محتقراً حِرَف الحضر من صناعة وزراعة وتجارة[3]. واعتمد في معيشته ما تنتجه ماشيته، فاعتزل ثيابه من صوفها، وأكل لحمها، وشرب لبنها وحليبها، وجعل من جلدها بعض مسكنه[4].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.
(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٩، وفيليب حتي، تاريخ العرب، ١/١١٨.
(٣) المرجع السابق الثاني، ١/٢٨، ومحمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، ص ٥٥.
(٤) أحمد امين، فجر الاسلام، ص ٩.

وتمسك البدو بالقبيلة، حتى صارت عندهم «أساس الحياة الاجتماعية[١]». فكانت الذات تستمد كيانها من غيرها ـ من قبيلتها. وهذا ما دفع بعض الشعراء، مثل طرفة بن العبد إلى ما يمكن أن نسميه «الصراع الشعري» (مع أنه كثيراً ما واكبته الممارسة العملية) من أجل تأكيد وجود الذات، واسترجاع كيانها من قبضة الآخر. كما تمسّك البدو، والعرب بعامة، بأنسابهم، وآمنوا بضرورتها، واعتزّوا بها؛ فهي بمنزلة الوطن بالنسبة إليهم، أو كالهوية[٢]. وكانت العصبية الرابط الجامع بينهم[٣]، وقد اعتبرها ابن خلدون أولى مقوّمات الدولة[٤]. ولعل هذه العصبية، والفخر بالنسب الذي كانوا يؤمنون به إيماناً شديداً هو ما جعل المواقف تشتد والصراع يتفاقم بين القحطانية والعدنانية.

ومن الجدير بالذكر أن العلاقات بين البدو والحضر لم تكن على ما يرام. فقد تحاربوا وتناحروا تارة، وتحالفوا طوراً لقاء مال يؤديه الحضر إلى البدو من أجل حماية القوافل[٥].

وكانت للأحلاف أهمية كبرى في حياة الجاهليين، فقد كانت تقوم بين القبائل نفسها، فتنضم العشيرة الصغيرة إلى الكبيرة، وقد تتلاشى فيها كما تلاشى كثير من القبائل في قبيلة تنوخ في العراق. فإن تحالفت القبيلة

---

(١) راجع: فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٣٣ ـ ٣٤.
(٢) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص ٥٧.
(٣) الموضع نفسه.
(٤) راجع: ابن خلدون، المقدمة، ص ١٤٥ ـ ١٤٧، و ١٥٤ ـ ١٥٧، و ١٥٩ ـ ١٦١ وغيرها...
(٥) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٢٩.

مع أخرى أصبح لها عليها كل الحقوق، فتشترك معها في الحرب والغزو[١]، وتحاكيها في تقاليدها وآلهتها. وربما تركت القبيلة حلفاً وانخرطت في آخر، يناسب مصالحها[٢]. وقليلة جداً هي القبائل التي لم تنخرط في أحلاف لبأس فرسانها، ودعيت جمرات العرب[٣]، إلا أن أكثرها لا يلبث أن ينهار في المعارك، بعكس المتحالفين. والتحالف هو يمين العهد. وكانوا يغمسون أيديهم بالدم أو بالطيب ويقسمون الولاء. وأهم أحلاف مكة حلف المطيّبين بين بني عبد مناف وبني زهرة وبني تيم وبني أسد ضد بني عبد الدار ومن تحالف معهم[٤].

وكان للقبيلة مجلس شيوخ يضم شيوخ العشائر. يبحث في شؤون القبيلة. ويتقدم هذا المجلسَ شيخ رئيسٌ يُخْتَارُ من المسنين لحكمتهم[٥]. ويشترط فيه، إلى جانب السن أن يتحلى بأخلاق مثالية، وشخصية مرموقة. ولا يبتّ في الأمور وحده، بل يشاور مجلس القبيلة[٦]. ويعامَلُ الشيخ معاملة الأكفاء. وهو يقود القبيلة في الحروب، ويستقبل الوفود، ويقسم المغانم، ويعقد معاهدات الصلح... إلا أنه، على الرغم من كل هذا، تظل سيادته مجرد رمز، وتستطيع القبيلة أن تخلعه[٧] أو تقتله، كما قتل شيخُ تغلبَ كُلَيْبٌ. وكان شيخ القبيلة يسمى سابقاً «السيّد»، حتى جاء

---

(١) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٥٨.
(٢) الموضع نفسه.
(٣) الموضع نفسه.
(٤) المرجع نفسه، ص ٥٧.
(٥) المرجع نفسه، ص ٥٩، وفيليب حتي، تاريخ العرب، ٣٥ ـ ٣٦.
(٦) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٦٦.
(٧) شوقي ضيف، العصر الجاهلي: ص ٥٩ ـ ٦٠.

الإسلام، فاقتصر هذا الاسم على ذرية النبي والحسين[1]. ويجمع معاوية الكلابي (؟ ـ ؟) خصال الرئيس وصفاته في قوله[2]:

إنِّـــي ٱمْـــرُؤٌ مِـــنْ عُصْبَـــةٍ مَشْهُـــورَةٍ
حُشْـــدٌ لَهُـــمْ مَجْـــدٌ أَشَـــمُّ، تَلِيـــدُ
أَلِفُـــوا أَبَـــاهُـــمْ سَيِّـــداً، وَأَعَـــانَهُـــمْ
كَـــرَمٌ وَأَعْمَـــامٌ لَهُـــمْ وَجُـــدُودُ
إِذْ كُـــلُّ حَـــيٍّ نَـــابِـــتٌ بِـــأَرُومَـــةٍ
نَبْـــتَ العضـــاةِ فَمَـــاجِـــدٌ وكسيـــدُ
نُعْطِـــي ٱلعَشِيـــرَةَ حَقَّهَـــا وَحَقِيقَهَـــا
فِيهَـــا، وَنَغْفِـــرُ ذَنْبَهَـــا، وَنَسُـــودُ
وَإِذَا تُحَمِّلُنَـــا ٱلعَشِيـــرَةُ ثِقْلَهَـــا
قُمْنَـــا بِـــهِ، وَإِذَا تَعُـــودُ نَعُـــودُ
وَإِذَا نُـــوَافِـــقُ جُـــرْأَةً أَوْ نَجْـــدَةً
كُنَّـــا، سُمَـــيَّ، بِهَـــا العَـــدُوَّ نَكِيـــدُ
بَـــلْ لاَ نَقُـــولُ إِذَا تَبَـــوَّأَ جِيـــرَةٌ
إِنَّ ٱلمَحَلَّـــةَ شَعْبُهَـــا مَكْـــدُردُ

فالسيد، بنظره، يجب أن يكون كريم الأصل، من عشيرة قوية، جديراً بالسيادة وحقوقها، يبذل المال في جنايات عشيرته، ينجد ويحارب بلا تلكؤ، مضيافاً، جوّاداً.

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٣٦.
(٢) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ٣/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

وكان الفرد يخضع خضوعاً تاماً لقبيلته، ويخدمها مدفوعاً إلى ذلك بحكم عصبيّته ورابطة الدم أو الولاء. ولا يمكن لأحد أن يتسامح في هذه المسألة مع أيٍّ من الأفراد. يقول دريد بن الصَمَّة (مات ٦٢٩ ؟):

وَمَـــا أَنَـــا إلاَّ مِـــنْ غَـــزِيَّـــةَ، إنْ غَـــوَتْ
غَـــوَيْـــتُ، وَإِنْ تَـــرْشُـــدْ غَـــزِيَّـــةُ أَرْشُـــدِ[1]

وكانت القبيلة، بالمقابل، تؤمن لأفرادها الحماية، وتذود عنهم، وتنصرهم ظالمين أو مظلومين[2]، ومن هنا قيل: «أنصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً». وكانت الدماء تسيل كثيراً لأتفه الأسباب، وربما دامت طويلاً، كما في حربي البَسوس (حوالي ٥٠ سنة) والسبَاق[3] (حوالي ٤٠ سنة). وكانت أشد الكوارث على الجاهلي من البدو أن يخسر انتماءه القبلي، ويُخْلَع[4]. ونلفت هنا إلى طائفة من المخلوعين الذين عاشوا على قطع الطرق، وسموا: الشعراء الصعاليك، ومنهم عُرْوَة بن الورد (مات حوالي سنة ٦١٦)، وعمرو بن بَرّاق (مات في أثناء خلافة عمر بن الخطاب)، والسُلَيْك بنُ السُلَكة (مات سنة ٦٠٥ م)، وتأبط شراً (مات قبل الإسلام)، والشَنْفَرَى (مات قبل الإسلام)...

---

(١) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١/ ٥٨٠.
(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٨.
(٣) سُمّيت أيضاً حرب داحس والغبراء.
(٤) كان الخلع يتم علناً في الأسواق، حيث تعلن القبيلة أنها تتبرّأ من دم مخلوعها، ولا تتحمل، بعد، تبعات أعماله، ولا تنصره، أو تأويه. بل أحياناً تهرق دمه. وربما عاداها مخلوعها، كما حدث مع الشنفرى الذي حارب قبيلته حتى قتلته.

٤ ـ طبقات المجتمع الجاهلي:

قلنا إن القبيلة كانت وحدة المجتمع البدوي الرئيسة، وكانت تتألف من ثلاث طبقات[١]:

١ ـ **الأحرار**: وهم أبناء القبيلة العرب الذين تربط بينهم صلة الدم والرحم والنَسَب. إنهم عماد القبيلة، عليهم يُعَوَّل في الحرب، وبهم يُستعان في الملمّات.

٢ ـ **الموالي**: وهم الذين تعتقهم القبيلة بعد أن كانوا رقيقاً. وقد ينتمي إلى الموالي خليع من قبيلة ما، يستجير بأخرى فتجيره، فيواليها[٢].

٣ ـ **العبيد**: وهم الرقيق الذين استُقْدِموا من بلاد أجنبيّة، كالحبشة وسواها، أو أُسِروا في الحرب والغزو. وكان العرب يجيزون استرقاق الأسرى[٣]، إلى أن حرّم الإسلام استعباد العربي. أما النساء اللواتي يؤسرن في الحروب فهنّ السبايا.

وثمة، في المجتمع العربي، طائفة أخرى هي طائفة الخُلَعَاء، أي الأفراد الذين تخلعهم القبيلة لسوء سيرتهم. ويكون هذا الخلع علناً أمام الناس وفي الأسواق والمجامع. ومعنى الخلع التبُّرؤ من الفرد، فلا تدافع عنه قبيلته، ولا تجيره، ولا تقع عليها تبعات أعماله. والخلع أقصى عقوبة يمكن أن تلجأ إليها القبيلة، لأن المخلوع عندئذٍ يشبه، في أيامنا، الفرد الذي نفته الحكومة من وطنه. وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى، كما

---

(١) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٦٧.
(٢) أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، ٢/٧.
(٣) الموضع نفسه.

ذكرنا، فيوفّيها جميع حقوقها[1]. ومن هؤلاء الخلعاء الشعراء الصعاليك الذين ذكرنا بعضهم.

وربما كان الصعاليك أصحاب كرم[2]، على فقرهم[3]، وقوة عزيمة[4]، وسرعة عَدْوٍ وقوة جسدية[5]. وقد عاشوا على قطع الطرق، ضاربين في الفيافي ومجاهل الصحراء. لكن منهم مَنْ ظل في قبيلته كعروة بن الورد، وكان عطوفاً على الفقراء، ذا روح اشتراكية، يشاطر رفقاءه سريره ولقمته[6]، حتى لُقّب «أبا الصعاليك[7]»، وقيل «عروة الصعاليك[8]». ولم تقدم القبائل على خلع أفرادها إلا عند الضرورة القصوى: فأفرادها كانوا متضامنين كل التضامن، يستقتلون في الذود عن كرامة قبيلتهم ومصالحها.

٥ ـ الشيم العربية:

لعل أبرز ما يميز شخصية العربي هو مسألة الشيم التي تَحَلّى بها،

---

(١) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص٦٧.

(٢) يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط ٣، ص ٣٩ وما بعدها.

(٣) راجع في فقرهم: المرجع نفسه، ص ٢٨ وما بعدها.

(٤) راجع في قوة نفسهم: المرجع نفسه، ص ٣٤ وما بعدها.

(٥) راجع في هذا: المرجع نفسه، ص ٤٢ وما بعدها.

(٦) عروة بن الورد، ديوانا عروة بن الورد والسموأل، دار صادر، مجهول الطبعة والتاريخ، ص ٧ ـ ٨.

(٧) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١٥٧/١.

(٨) ديوانا عروة بن الورد والسموأل، ص ٧.

وتغنّى. وأولى خصاله الكرم[١]. فالبيئة التي عاش العرب فيها، أي الصحراء، جعلت حياتهم قاسية، عمادها الشظف؛ إنها شحيحة الرزق، تسحق المرء بثقلها. وهذا الجَدْبُ الذي يخلق في ذات العربي حاجة ملحّة إلى طلب الحياة، والذي جعل من المطر مصدراً للبقاء[٢]، وولّد البؤس، هو سبب كون الكرم أولى الفضائل. وربما كان هذا دليلاً على أن الحياة عند العرب لم تكن تسيطر عليها العاطفة التجارية[٣]. فكثيراً ما نحر الفرد إبله ليطعم غيره عند انعدام الرزق. ولم تكن قيمة الكرم في مقدار العطاء فحسب، بل في صفة السخاء نفسها[٤]. وممن اشتهر بالكرم حاتم الطائيّ (مات حوالي ٦٠٥)، حتى ضُرِبَ به المثل[٥]. ومن قوله في الكرم[٦]:

---

(١) راجع في هذا: كمال اليازجي، في الشعر العربي القديم (النوازع الخلقية ـ مكارم الأخلاق ـ ٢)، دار الكتاب اللبناني، ص ١٧٣ ـ ٢٠٠.

(٢) تدل لفظة «الغيث» نفسها على هذا. قارن: أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٤٦؛ ومحمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، ص ٥٥؛ وفيليب حتي، تاريخ العرب، ١٣١/١.

(٣) كمال اليازجي في الشعر العربي القديم (النوازع الخلقية ـ مكارم الأخلاق ـ ٢) ط ١، ١٩٧٣، ص ١٨٢.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٨٤.

(٥) مما يُروى عنه أنه، عندما كبر، «جعل يخرج طعامه، فإن وجد من يأكل معه أكل، وإن لم يجد، طرحه». (ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ٤٩١/١). وقيل إنه «لا يغزو غزوة، ولا يُحظى حظوة، إلا ويجد لها سبيلا من سُبُل الكرم والإنفاق. وقد ينحر النوق لِنَفَر قليل، ثم لا يدعهم يرحلون إلا بعد أن يقتسموا إبله، جزاء ما ذكروا له وما امتدحوه له من فضل». (الموضع نفسه).

(٦) المرجع نفسه، ٤٩٣/١ ـ ٤٩٤. وقارن: ديوان حاتم الطائي، دار بيروت، ١٩٨٦، ص ٥٠.

أَمَــاوِيَّ إِنَّ ٱلمَــالَ غَــادٍ وَرَائِــحٌ
وَيَبْقَـى، مِـنَ ٱلمَـالِ، ٱلأَحَـادِيـثُ وَالـذِكْـرُ
أَمَــاوِيَّ إِنِّــي لاَ أَقُــولُ لِسَــائِــلٍ
إِذَا جَـاءَ يَـوْمـاً حَـلَّ فِـي مَـالِنَـا نَـزْرُ
أَمَــاوِيَّ إِمَّــا مَــانِــعٌ فَمُبَيِّــنٌ
وَإِمَّــا عَطَــاءٌ، لاَ يُنَهْنِهُــهُ ٱلــزَجْــرُ
أَمَــاوِيَّ! إِنْ يُصْبِــحْ صَــدَايَ بِقَفْــرَةٍ
مِــنَ ٱلأَرْضِ، لاَ مَــاءٌ هنَــاكَ وَلاَ خَمْــرُ
تَـرَيْ أَنَّ مَـا أَهْلَكْـتُ لَـمْ يَـكُ ضَـرَّنـي
وَأَنَّ يَــدِي مِمَّــا بَخِلْــتُ بِــهِ صَفْــرُ

والخصلة الثانية لصيقة الصلة بشيمة الكرم، وهي الضيافة. وقد كان العرب، من البدو بخاصة، يوقدون النار لمساعدة الضالّين في الفيافي للوصول إليهم، فيؤمّنونهم، ويكرمونهم، وإن كانوا لهم أعداء[(١)]. وكانوا يفخرون بهذا. يقول عوف بن الأحوص (مات قبل الاسلام)[(٢)]:

وَمُسْتَنْبِــحٍ يَخْشَــى القَــوَاءَ وَدُونَــهُ
مِــنَ ٱللَّيْـلِ، بَـابـا ظُلْمَــةٍ، وَسُتُــورُهَـا
رَفَعْــتُ لَــهُ نَــارِي فَلَمَّــا ٱهتَــدَى بِهَــا
زَجَــرْتُ كِــلاَبِــي أَنْ يَهِــرَّ عَقُــورُهَـا

---

(١) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٦٨.
(٢) الجاحظ، كتاب الحيوان، ٥/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

فَــلاَ تَسْــأَلِينــي وَٱسْــأَلِــي عَــنْ خَلِيقَتــي
إِذَا رَدَّ عَــافِــي ٱلقِــدْرِ مَــنْ يَسْتَعِيــرُهَــا. . .
تَــرَيْ أَنَّ قِــدْرِي لا تَــزَالُ كَــأَنَّهَــا
لِــذِي ٱلغَــرْوَةِ ٱلمَقْــرُورِ، لاحَ بَشِيــرُهَــا
إِذَا ٱلشَــوْلُ رَاحَــتْ، ثُــمَّ لَــمْ يُفْــدِ لَحْمُهَــا
بِــأَلْبَــانِهــا ذَاقَ ٱلسِنَــانَ عَقِيــرُهَــا

وكانوا يعتدّون بالوفاء اعتداداً عظيماً وبالإخلاص[١]. فالوعد مقدّس عندهم، سواء كان على الصعيد الفردي، أو على الصعيد القبلي. فبرّوا بوعدهم، وقبّحوا من يخلف به، علانيةً، في الأسواق[٢]، وعيّروه أمام العرب.

وكان العرب يعتدّون بإغاثة الملهوف أيضاً. يقول طرفة بن العبد[٣]:

وَكَــرِّي، إِذَا نَــادَى ٱلمُضَــافُ مُحَنَّبــاً،
كَسِيــدِ ٱلغضَــا، نَبَّهْتُــهُ، ٱلمُتَــوَرِّدِ

ومن الشيم العربية العفوُ عند المقدرة[٤]، فاشترطوا للصفح أن يكون

---

(١) راجع فيه: كمال اليازجي، في الشعر العربي القديم، النوازع الخلقية (الأضداد الخلقية ـ مكارم الأخلاق ـ ٣)، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٧٣، ص١٥٣ ـ ١٥٧.
(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٦٩.
(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٢.
(٤) راجع: كمال اليازجي، في الشعر العربي القديم (النوازع الخلقية ـ مكارم =

صاحبه «قادراً على الانتقام لو شاء، وإلا لم يكن للصفح قيمة[1]». ولا يفسد الصافحُ صفحَهُ باللوم والتأنيب[2]. وقد ذكر العرب للصفح ثلاث فضائل بارزة «الأولى أنه صفة مميزة للكريم، والثانية أنه يوثق عرى الألفه، والثالثة أنه يستعبد الحر ويجعله يشعر أنه مغمور بفضل الصافح[3]».

ومن الشيم أيضاً الشجاعة[4] والأنَفَة[5] وازدراء الهَوَان. يقول المتلمّس الضبيعي (مات ٥٨٠) ابن اخت طرفة بن العبد في هذا[6]:

إِنَّ ٱلهَـوَانَ حِمَـارُ ٱلقَـوْمِ يَعْـرِفُـهُ
وَٱلحُـرُّ يُنْكِـرُهُ، وَٱلـرَّسْلَـةُ ٱلأُجُـدُ
وَلَـنْ يُقِيـمَ عَلَـى خَسْـفٍ يُسَـامُ بِـهِ
إِلاَّ ٱلأَذَلاَّنِ: عَيْـرُ ٱلحَـيِّ وَٱلـوَتَـدُ
هَـذَا عَلَـى ٱلخَسْـفِ مَـرْبُـوطٌ بِـرِمَّتِـهِ،
وَذَا يُشَـجُّ فَمَـا يَـرْثِـي لَـهُ أَحَـدُ

وكانت صفتا الشجاعة والبَأس من أهم الصفات العربية، يتغنى بها الجميع، ولا تكاد تخلو منها قصيدة. ولعل هذا ما جعل الشعر العربي شعر الحماسة بامتياز. يقول طرفة بن العبد[7]:

= الأخلاق ـ ٢)، ص ١٤٥ ـ ١٧٢.
(١) المرجع نفسه، ص ١٤٦
(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٨
(٣) المرجع نفسه، ص ١٥١
(٤) المرجع نفسه، ص ٦٠ ـ ٦٦
(٥) المرجع نفسه، ص ١٧ ـ ٢٧
(٦) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٧) ديوان طرفة بن العبد، ص ٢٩.

إِذَا ٱلقَـوْمُ قَـالُـوا: مَـنْ فَتـىً ؟ خِلْـتُ أَنَّنِـي
عُنِيـــتُ، فَلَـــمْ أَكْسَـــلْ وَلَـــمْ أَتبَلَّـــدِ

وقال عمرو بن كلثوم[1] في المعلقة:

مَـــلأْنَـــا ٱلبَـــرَّ حَتَّـــى ضَـــاقَ عَنَّـــا
ومـــــاءُ ٱلبَحْـــــرِ نَمْــــلأُهُ سَفِينَـــــا
إِذَا بَلَـــغَ ٱلفِطَـــامَ لَنَـــا صَبِـــيٌّ
تَخُـــرُّ لَـــهُ ٱلجَبَـــابِـــرُ سَـــاجِـــدِينَـــا

وقال عنترة[2]:

وَلَقَـــدْ شَفَـــى نَفْسِـــي وَأَذْهَـــبَ سُقْمَهَـــا
قِيـــلُ ٱلفَـــوَارِسِ: وَيْـــكَ، عَنْتَـــرَ، أَقْـــدِمِ
وَٱلخَيْـــلُ تَقْتحِـــمُ ٱلغُبَـــارَ عَـــوَابِســـاً
مِـــنْ بَيْـــنِ شَيْظَمَـــةٍ وَآخَـــرَ شَيْظَـــمِ

وتغنى الجاهليون بالخمر، فجرت أحاديثها على كل لسان، وتحدثوا عن مجالسها وحوانيتها والجواري، واعتبروها من مظاهر الكرم، نظراً لثمنها الباهظ آنذاك. وكثيراً ما ذكرها الأعشى (مات عام ٦٢٩) وَعَدِيّ بن زيد العبادي (مات عام ٥٩٠ ؟)[3]. وقد افتتح بعضهم معلقته بذكرها، كما

---

(١) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١/ ٤٣٣.
(٢) ديوان عنترة، ص ٣٠.
(٣) جعل ابن تغري بردي وفاته عام ١٠٢ هـ. وهذا غير معقول. وجعله آخرون معاصراً للخلفاء الأربعة. راجع هذا في: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تعريب: مجموعة معربين، دار المعارف، ط ٤، ١/١٢٦.

فعل عمرو بن كلثوم إذ قال[1]:

أَلاَ هُبِّـــي بِصَحْنِــــكِ فَــــاْصْبحينـــا،
وَلا تُبْقِــــي خُمُــــورَ ٱلأَنْــــدَرينــــا
مُشعْشَعَـــــةً كَـــأَنَّ ٱلحُـــصَّ فِيهَـــا
إِذَا مَـــا ٱلمَـــاءُ خَـــالَطَهَـــا سَخِينَـــا

وكانوا يشترون الخمر من النصارى، وهم أكثر من يتجر بها، ثم اليهود[2]. إلا أنَّ الإدمان على الخمر كان يسبب أحياناً خلع الفرد وابتعاد قبيلته عنه متى واكبه تبذير واستهتار؛ وكانت هذه حال طرفة بن العبد، حين قال[3]:

وَمَـــا زَالَ تَشْـــرَابِـي ٱلخُمُـــورَ وَلَـــذَّتِـــي
وَبَيْعِـــي وَإِنْفَـــاقِـــي طَـــرِيفِـــي وَمُتْلَـــدِي
إِلَـــى أَنْ تَحَـــامَتْنِـــي ٱلعَشِيـــرَةُ كُلُّهَـــا
وَأُفْـــرِدْتُ إِفْـــرَادَ البَعِيـــرِ ٱلمُعَبَّـــدِ

٦ ـ المرأة ومكانتها في العصر الجاهلي:

كانت المرأة في الجاهلية ذات مكانة مهمة في المجتمع، فلم تكن نكرة ولا محتقَرَة. وكانت لها حرية الاختيار. ورواية الخنساء تمَاضر بنت

(١) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١/ ٤٢٠.
(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٧٠
(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣١.

عمرو (٥٧٥ ـ ٦٦٧ ؟) مع دريد بن الصَمَّة الفارس الشاعر مشهورة، مفادها أن دريداً خطبها من أبيها، فقال له والدها: «مرحباً بك، أبا قرة، إنك لَلْكَريم لا يُطْعَن في حسبه، والسيّد لا يُرَدّ عن حاجته، والفعل لا يقرع أنفه. ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها. وأنا ذاكِرُكَ لها، وهي فاعلة». ثم دخل إليها، فقال: «يا خنساءُ، أتاكِ فارسُ هوازن، وسيد بني جشم، دريد بن الصمة، يخطبك، وهو من تعلمين. . .» فقالت: «يا أبتِ، أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح، وناكحة شيخ بني جشم، هامة اليوم أو غد». فخرج إليه أبوها، فقال: «يا أبا قرّة، قد امتنعت. ولعلها أن تجيب فيما بعد». فقال: «قد سمعت قولكما». وانصرف[(١)]». توضح هذه الرواية كيف أن المرأة كان لها حق كبير في اتخاذ القرار. ويعلق صاحب «الروائع» على هذه الحادثة قائلاً: «تدلنا هذه الحادثة على ما كان للخنساء من حرية اختيار مع وجود أبيها، وأخويها، وكلاهما أكبر منها سناً، هذا على صِغَر سنّها إذّاك[(٢)]». وكانت النساء الشريفات يخترن أزواجهنّ، فإن أساءوا معاملتهُنَّ يتركنهم[(٣)]. حتى إن بعضهن كن يجرن من يستجير بهن، وقد يُعِدن إليه حريته إن أُسِر واستشفع بهنّ. وحادثة السليك بن السلكة مع فكيهة مشهورة، فقد أخلت سبيله، أو كانت سبباً في هذا عندما قبضت عشيرتها عليه[(٤)].

---

(١) فؤاد افرام البستاني، الخنساء، سلسلة الروائع، ط ٤، ١٩٦٥، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥. وقارن: الأصفهاني، الأغاني، ١١/٩، و: ديوان الخنساء، دار الأندلس، ط ٦، ١٩٦٩، ص ٦.

(٢) فؤاد افرام البستاني، الخنساء، ص ٤٥٥.

(٣) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٧٢.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ١٨/ ١٣٩.

وكان للنساء كذلك دور في الحروب. فقد اصطحبهنّ الرجال معهم في غزواتهم لكي يشددن عزائمهم بأناشيدهنّ، ولندبتهم عندما يموت فارس[1]. ومن هؤلاء النساء الخنساء ولها مراثٍ في أخويها صخر ومعاوية مشهورة.

وكانت المرأة تحضّ على الثأر في الحروب. وأكثر ما كان يغضبها قبول عشيرتها الجزية من قبيلة أخرى لترك الثأر، «فالدم لا يغسله إلا الدم[2]». وقد قالت أم عمرو بنت وقدان عندما أرادت عشيرتها قبول الجزية في أخيها:

إنْ أنتمُ لَمْ تَطْلُبوا بأَخِيكُمُ
فَذَرُوا ٱلسلاَحَ وَوَحِّشُوا بِٱلأَبْرَقِ
وَخُذُوا المَكَاحِلَ وَٱلمَجَاسِدَ وَٱلْبَسُوا
نقْبَ ٱلنسَاءِ فبِئْسَ رَهْطُ ٱلمرْهقِ

ولعل أكبر دلالة على مكانة المرأة في الجاهلية افتتاح الشعراء آنذاك قصائدهم بالوقوف على الأطلال وذكر الأحبّة. ومع أن هذا الأمر صار عادة مُتَّبَعَة، فهو يدل على ما كان للأنثى من أهمية طوّرت هذه العادة ونمّتها؛ وكانت مادة ثرّةً للغزل، فقد وصف الشعراء لباسها وحليها وطيوبها. قال امرؤ القيس[3]:

---

(١) محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، ص ٦٢، وشوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٧٣.
(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب، ٣٣/١.
(٣) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ٢٢٩/١.

وَتُضْحِـي فَتِيـتُ ٱلمِسْـكِ فَـوْقَ فِـرَاشِهَـا
نَـؤومُ ٱلضُّحَـى لَـمْ تَنْتَطِـقْ عَـنْ تَفَضُّـلِ

وقال المنخل اليشكري (مات ٦٠٣ م). يصف حبيبته[١]:

وَلَقَـــدْ دَخَلْـــتُ علـــى الفَتـــا
ةِ ٱلْخِـــدْرَ فِـــي ٱليَـــوْمِ ٱلمَطِـــرِ
ٱلْكَـــاعِـــبُ ٱلْحَسْنَـــاءُ تَـــرْ
فُـلُ فِـي ٱلـدِمَقْـسِ وَفـي ٱلحَـرِيـرِ

ووقف الشعراء على جمالها النفسي، وقصيدة الشنفرى في زوجته أميمة مشهورة حيث يُظهر محاسنها ومحامدها.

هكذا نفهم كيف أن المرأة الجاهلية لم تكن مهملة. وقد ملكت الأموال، ومارست التجارة، وكانت لها حرية جعلتها بارزة في المجتمع الجاهلي.

وكان ثمة نوعان من النساء: الحُرَّات، وقد أتينا على ذكرهنّ، والإماء، وسنذكرهُنّ. وقد كانت بعضهن عاهرات، وبعضهنّ عملن في الحوانيت[٢]. وكان بعضهنّ يخدمن الحرّات في أخدارهنّ، أو يقمن برعاية الماشية. وكان بعض العرب يتزوج منهنّ، فإن انجبت المرأة منه لم ينسب طفلها إليه إلا إذا قام بعمل عظيم، كما كانت الحال مع عنترة بن شدّاد الذي أبى والده نسبته إليه وعَتْقَه إلا عندما دافع عن قبيلته في شِدّة، وأنقذها.

---

(١) المرجع نفسه، ٣/ ٣١٤ ـ ٣١٥.
(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٧٥.

لكن المرأة لم تكن قادرة على الحلول محل الرجل في الحروب، من هنا كانت أقل شأناً منه في مجتمع بدائي قام على الحرب المستمرة[١]. ولعلها كانت دونه شأناً في هذه المسألة لا في سواها. وقد ذهب بعضهم إلى أن الغزو المتتالي في الجاهلية كان يؤدي إلى تقليل عدد الذكور، وبالتالي إلى ارتفاع عدد النساء[٢]، وعزا إلى هذا السبب تعدد الزوجات.

بقيت مسألة الوأد التي، وإن عرفها المجتمع العربي الجاهلي، لم تكن شائعة عند العرب، بل كانت ظاهرة قليلاً ما نقع عليها؛ وإلا، لو انتشرت، لسببت انقراض الجنس! وكان العرب الذين لجأوا إلى الوأد يئدون خوفا من السبي الذي اعتبروه أكبر طعنة في شرف الإنسان[٣]. وعندما جاء الإسلام حرّم هذا[٤].

٧ ـ الغزو والثأر / أيام العرب

ألف ـ الغزو/ معناه وأهميته:

دفعت قساوة الطبيعة وشظف الحياة والشحّ الذي اتّسمت به الصحراء

---

(١) يقول طرفة، مثلاً، واصفاً المغنية التي كانت تغني في الحانوت:

نَـدَامَـايَ بِيـضٌ كَـالنُّجُـومِ، وَقَيْنَـةٌ
تَـرُوحُ عَلَيْنَـا بَيْـنَ بُـرْدٍ وَمُجْسَـدِ
رَحِيـبٌ قِطَـافُ ٱلْجَيْـبِ مِنْهـا، رَقِيقَـةٌ
بِجَـسِّ ٱلنَّـدَامـى، بَضَّـةُ ٱلْمُتَجَـرَّدِ

(ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٠)

(٢) محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، ص ٦١.

(٣) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٦٠

(٤) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٧٥.

ومفازاتها، وانحباس الأمطار، دفع كل هذا العربيَّ القديم إلى ما يسمى بالغزو حتى أصبح من مقوّمات المجتمع البدوي الاقتصادية[١]. ومعنى الغزو الإغارة والسَلْب[٢]، وهو نوع من اللصوصية، إذ يُهاجم أفرادُ قبيلة، عَنْوَةً، قبيلةً أخرى، ويسطون على أنعامها، ويسبون نساءَها وأولادها. وقد أصبح هذا الفعل أعلى عمل يدل على الرجولة ويليق بها، بل إنه صار «ضرباً من الرياضة القومية[٣]». وقد قامت به كل القبائل حتى النصرانية منها. وربما كان هذا الأمر ردة فعل على الإحساس بالدهر وثقله وعلى صُدْفِيَّة الحياة التي انهكت الجاهليين. فالجاهلي «يستنجد بإرادة البطل ضد الدهر، بشجاعة شبه مستحيلة ضد خطر النقص والضعف والذلّ، الخطر الممكن، والمتحقق كل لحظة[٤]». وقد تنجح قبيلة مستقرة بطرف البادية في تجنب الغزو إذا دفعت جزية للقبيلة التي تهددها[٥]. ولكن، لا يجب أن نفهم الغزو على أنه أمر مقترن بإراقة الدماء، لأن القتال لم يكن إلا في الضرورة القصوى، نظراً لعواقبه الوخيمة.

باء ـ الثأر وأيام العرب:

وكان الثأر هو القانون الأكبر الذي تحكّم بالجاهليين، وارتفع، أحياناً، إلى مستوى التقديس الديني[٦]، فقد كان الرجل يحرّم على نفسه

---

(١) ورد في القرآن الكريم: ﴿وإذا الموؤودة سألت: بأيّ ذنبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير/٨ ـ ٩)

(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٣١.

(٣) أحمد أمين، فجر الاسلام، ص ٩.

(٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٣١.

(٥) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١/ ٣٠.

(٦) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ٣١.

الشراب والنساء والملذات حتى يثأر. فإن قتل أحد الأفراد، لبّت القبيلة كلها نداء الدم، وقامت بينها وبين القبائل الأخرى حروب لا تلبث أن تستفحل وتستعر، فيسقط القتلى، وتتراكم الثارات، حتى إذا ما تفاقم الأمر دُفِعَتِ الديَةُ، وتوقفت الحرب الطويلة. ولم تكن الدية تُقْبَل إلا عندما كان الأمر يشتد ويتفاقم، لأنها اعتبرت ذلاً ومهانة[1]. فأهم أمر عند الجاهلي لصون الكرامة هو طلب الثأر. وفي هذا يقول تأبط شراً[2]:

قَلِيـــلُ غِـــرَارِ ٱلنَـــوْمِ، أَكْبَـــرُ هَمِّـــهِ
دَمُ ٱلثـــأرِ، أَوْ يَلْقـــى كَميّـــاً مُسَفَّعَـــا

فأولى همومه طلبُ الثأر، إذّاك تشتبك القبائل، وتسيل الدماء. وقد تكون شرارة الحرب بسيطة، بل تافهة، ثم يهبّ الجميع لتلبية ندائها، ويشفي غليله بقتل أعدائه. يقول دريد بن الصمة[3]:

فَـإنّـا لَلَحْـمُ ٱلسَيْـفِ، غَيْـر نَكِيـرَةٍ،
وَنُلْحِمُـهُ حِينـاً وَلَيْـسَ بِـذِي نُكْـرِ
يُغَـارُ عَلَيْنَـا، وَاتِـريـنَ، فَيُشْتفَـى
بِنَـا، إنْ أُصِبْنَـا، أَوْ نُغِيـرُ عَلـى وتْـرِ
قَسَمْنَـا بِـذَاكَ ٱلـدَهْـرَ شَطْـرَيـنِ بَيْنَنَـا
فَمَـا يَنْقَضِـي، إلاَّ وَنَحْـنُ عَلـى شَطْـرِ

والفارس البطل، بنظرهم، هو الذي يموت طريحاً في ميدان

---

(١) شوقي شيف، العصر الجاهلي، ص ٦٢.
(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٩.
(٣) إيليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١٠٧/١.

المعركة، فريسةً للوحوش. يقول الشنفرى[1]:

وَلاَ تَقْبِـــرونـــــي إنَّ قَبْــــرِي مُحَــــرَّمٌ
عَلَيْكُـــمْ، وَلَكِـــنْ أَبْشِـــري أُمَّ عَـــامِـــرِ

ومن قصص الثارات أن بني أسد تنكروا للحجر بن عمرو فقتلوه. وكان ابنه امرؤ القيس غائباً. وقيل إنه كان له عليهم إثاوة، فأبوا دفعها، فأتاهم، وسبى كبارهم، وجعل يقتلهم بالعصا، وأباح أموالهم. ثم رقّ لهم، فأخذوه على غفلة، فقتلوه[2]. ولما بلغ الخبر امرأ القيس بن حجر الكندي أعد العدة للثأر وقصد بني أسد، ففرت القطا من طريقه، ورأتها قبيلة أسد، فأدركت أن جيشاً قادمٌ، فارتحلت. وأصبح امرؤ القيس، فضرب كنانة صائحاً: يا للثارات. ثم مضى إلى اليمن، إذ لم تكن له قوة على بني أسد ومَنْ يحالفهم من قيس، فأقام فيها زمناً. ثم استنجد قومه، فأنجدوه بخمسمئة من مذحج، فخرج بهم إلى أرض مَعَدّ، وأوقع ببعض قبائلها، وقتل الأشقر بن عمرو سيد بني أسد، فشرب من قحف رأسه. ثم طلب معدّ امرأ القيس، وأراد العودة إلى اليمن، فخاف حضرموت، وطلبته قبيلة أسد. واستجار ببعض العرب فأبوا، ومنهم السموأل بن عادياء، فترك عنده بعض الدروع ورحل يريد ملك الروم. فصار إلى قيصر، فأمدّه بتسعمئة رجل. ثم بلغ قيصراً أن امرأ القيس سَبَّهُ في شعره، فدسّ له السم، فمات[3].

وكانوا يسمون وقائع العرب أياماً. وقد ذهب أبو الفرج الأصفهاني

---

(١) المرجع نفسه، ١/ ٥٧٧.
(٢) ديوان الشنفري، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٩١، ص ٤٨.
(٣) تاريخ اليعقوبي، ١/ ٢١٧.

إلى أنها سبعمئة وألف يوم[١]. ولكن الأرجح أنهم سمّوا مواقعهم أياماً لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً، ويتوقفون عن القتال ليلاً حتى يُصْبحوا[٢] وقد عقد كُتّاب العرب فصولاً كثيرة وصفحات طويلة لهذه الأيام في مؤلّفاتهم، كابن عبد ربه في «العقد الفريد»[٣]، والأصفهاني في «الأغاني»[٤]، وابن الأثير في «الكامل»[٥]، واليعقوبي في تاريخه[٦]، وغير ذلك... وسمى العرب هذه المعارك أيضاً باسم ما أحدثها، كحرب البسوس[٧]، أو حرب السباق[٨]...

وكانت هذه الأيام بمنزلة مناوشات بين القبائل، إمّا بين القحطانية والعدنانية، وإما بين قبائل مختلفة. وقد توفرت فيها فرص الإغارات والسلب والسبي، وتطايرت فيها الأشعار من حماسة وفخر وهجاء. ورأى بعضهم أن هذه الحروب كانت منقذاً يخلص البلاد من ازدحام السكان[٩]، ولكننا لا نقتنع بهذا لأن وسع شبه جزيرة العرب وقلة عدد سكانها نسبيّاً، بالقياس إلى مساحتها، على الرغم من الصحارى المترامية، يجعل ازدحام السكان المزعوم أمراً بعيداً عن الصواب.

---

(١) ديوان امرىء القيس، دار بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٤ ـ ٢٥، وقارن: ابن الأثير، الكامل، ١/ ٣٠٤ وما بعدها.
(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٦٤.
(٣) الموضع نفسه.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار ومكتبة الهلال، مجهول التاريخ، ٣/ ٥٠ ـ ٩٥.
(٥) راجع مثلاً: ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/ ١٣٢ ـ ١٤٠.
(٦) ابن الأثير، الكامل، ١/ ٢٨٥ وما بعدها و ١/ ٢٩٩ وما بعدها.
(٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢/ ١٥ ـ ١٦.
(٨) وهي باسم البسوس عمة جسّاس سيد بكر، وسيأتي ذكرها.
(٩) وهي بسبب سباق خيل (الحصان داحس، والفرس الغبراء) وسيأتي ذكرها.

ومن أشهر أيام العرب يوم ذي قار[1] الذي تغنى به الشعراء طويلاً، وطار ذكره على ألسنة العرب. وهو موقعة بين العرب والفرس. فقد كانت القوافل الفارسية، عند مرورها ببلاد العرب، تدفع جزية من أجل الأمان. وحدث أن استكثر الفرس هذه الجزية، فأبوا دفعها، فهاجم العرب إحدى القوافل الفارسية، واحتلّوها، وقتلوا حُماتَها[2]؛ وكان هذا في زمن عرب الحيرة.

ومن أيامهم المشهورة يوم أوارة الأول[3] بين المنذر بن ماء السماء وبني بكر، ويوم أوارة الثاني[4] بين عمرو بن المنذر بن ماء السماء وبني تيم، ويوم خزاز[5] بين ربيعة واليمن من مذحج، وخبره أن الحجاز ونجد كانتا تحت سيطرة الحميريين. وبعد فتح الأحباش ضعفا، وفكّر بنو ربيعة بالخروج عليهم ليتخلصوا من دفع الجزية. فتمردوا، ولكن ولاة اليمن سحقوا هذا التمرد. وفي أوائل القرن الخامس الميلادي. ولي كُليب بن وائل (٤٤٠ ـ ٤٩٤ م ؟)، فاستجمع معدّاً، وحارب القحطانيين في جبل ما بين مكة والبصرة، وكانت موقعه خزاز التي استقتل فيها العرب من ربيعة. ومن أيامهم يوم الكلاب الأول[6] بين بكر وعشائر من تميم وضبّة، وبين

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ١١٩.
(٢) راجع: الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/ ١٣٢ ـ ١٤٠، وابن الأثير، الكامل، ١/ ٢٨٥ وما بعدها، وابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/ ٩٥ ـ ٩٨.
(٣) راجع: تاريخ اليعقوبي، ١/ ٢١٥.
(٤) راجع: ابن الأثير، الكامل، ١/ ٣٣٤.
(٥) راجع: المرجع نفسه، ١/ ٣٣٥.
(٦) راجع: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/ ٨٩.

تغلب وبهراء والنمر. ويوم بعاث[1] بين الأوس والخزرج بالمدينة، وقد جرى بين قريش وأحلافها من كنانة، وبين هوازن، وشهد النبي بعض وقائعه[2]. وعرفت يثرب غير وقيعة[3]، ومنها يوم سُمَير[4] الذي اندلعت احداثه عقب قتل سُمَير بن زيد الأوسي حليفاً لمالك بن العجلان الخزرجي، ودام عشرين سنةً؛ ويوم السرارة[5]، وكان سببه قتلُ رجلٍ من بني الحارث الخزرجي رجلاً من الأوس من بني عمرو بن عوف، ودام أربعة أيام؛ ويوم الربيع[6] بين بني ظفر الأوسيين وبني مالك بن النجار الخزرجيين، وسببه قتل ربيع الظفري أحد بني النجار، وكادت هذه الحرب تفني القبيلتين، وقد رجحت فيها كفة الأوس؛ ويوم كعب[7]، وسببه مقتل كعب بن عمرو الخزرجي على يد رهط من بني جَحْجَبَا الأوسيين، وهزم فيه الأوس؛ وحرب فارغ[8] التي نسبت إلى فارغ أطم حسان بن ثابت، ويوم معبس ومضرس[9] والأول أوسي، والثاني خزرجي، انهزمت فيه الأوس أقبح هزيمة، ويو الفجار[10] (أو أيامه) لأنه وقع في الأشهر الحرم، وكانوا لا يقتتلون فيها.

---

(١) المرجع نفسه، ٣/ ٨١.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ١/ ٤١٧ ـ ٤٢٠.
(٣) ياقوت، معجم البلدان، ٣/ ٥٧٩.
(٤) راجع فيها: محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، ص ١٠٢ وما بعدها.
(٥) ابن الأثير، الكامل، ١/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣.
(٦) المرجع نفسه،١/ ٤٠٥ ـ ٣٤٠٦
(٧) المرجع نفسه،١/ ٤١١
(٨) المرجع نفسه،١/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥
(٩) المرجع نفسه،١/ ٤٠٩ ـ ٤١١
(١٠) المرجع نفسه،١/ ٤١٥ ـ ٤١٦

ومن أيامهم يوم حوزة الأول[١] بين سليم وغطفان، ويوم حوزة الثاني[٢]، وهو بينهما أيضاً، ويوم الرحران[٣] بين قيس وتميم، وغيرها كثير. . . أما حربا البسوس والسباق (داحس والغبراء) فهي أطول حروبهم وأهمها، ولا بد من أن نقف عندهما قليلاً.

ألف ـ حرب البَسوس[٤]: جرت بين بكر وتغلب، وكان بينهما قرابة، وهما قبيلتان نصرانيتان[٥]. وسببها أن سيّدَ تغلب كليبا رمى ضرع ناقة للبَسوس، عمةِ جسّاس سيد بكر، لأنها وردت الماء مع إبل له، فاختلط حليبها بدمها. فاستنجدت البسوس بجسّاس، فخرج إلى كليب وقتله. ودارت رحى الحرب أربعين سنة، وتطايرت فيها الأشعار، وكثرت وقائعها، ومنها يوم عنيزة، ويوم واردات. وكان المهلهل (مات ٥٣٢ ؟) من تغلب، وهو أخو كُلَيب، من أبطال هذه الحرب، وله فيها شعر كثير. وما زالت رحاها دائرة حتى وضعت أوزارها عام ٥٢٥ م. بوساطة المنذر الثالث. وقد كتبت في المهلهل قصة شعبية سمّوها «الزير سالم».

---

(١) يشير ابن الأثير إلى يوم الفجار الأول والثاني. راجع: الكامل، ١/ ٤١٤ ـ ٤١٥ و ٤١٦ ـ ٤١٧، وتاريخ اليعقوبي، ٢/ ١٥ ـ ١٦، وابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/ ٩١ ـ ٩٣ (ويشير صاحب العقد إلى أيام الفجار الأول والثاني والثالث والآخر).

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/ ٦٠.

(٣) المرجع نفسه، ٣/ ٦٠ ـ ٦١.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ١/ ٣٣٦ وما بعدها، وابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/ ٥١.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ١/ ٣١٢ وما بعدها، وابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/ ٧٧ ـ ٧٨.

باء ـ **حرب السباق**[١]: جرت أحداثها بين عبس وذبيان، وهما من جَدّ واحد، هو غطفان. وسببها رهان على حصان وفرس: داحس والغبراء. وكان الرهان بين قيس بن زهير (مات بعد ٦٣١ م) سيد عبس الذي راهن على داحس، وبين حذيفة بن بدر سيد ذبيان الذي راهن على الغبراء[٢]. وكان حذيفة قد أضمر الشر والغدر، فجعل واحداً من بني أسد في الطريق ليلقي بداحس في أسفل وادي ذات الأصاد إن كان متقدِّماً، ففعل. فلمّا انطلقت الخيل، تقدَّم داحسُ، فلطم الرجل وجهه، فسقط في الماء حتى كاد يغرق، وخالف راكب الغبراء طريق داحس لما رأى هذا، ثم ربح السباق. ولما علم قيس ما كان من أمر الغش، أنكر هذا حذيفة، مدّعياً أن فرسه قد وصلت أولاً. ثم اعترف الغلام لقيس بما كان أمام حذيفة، فغضب هذا. وأرسل حذيفة ابنه إلى قيس في طلب الرهان، فقتله قيس. واندلعت الحرب، وكانت فيها أيام كثيرة، مثل وقعة البوار التي فاز فيها بنو عبس، ووقعة ذات الجراجر ودامت يومين، واشتهر فيها عنترة بن شداد.

وبعد أن طالت الحرب، تقدم سيدان من ذبيان هما الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وتحمّلا ديات القتلى. وأشاد بهما زهير بن أبي سلمى كثيراً في معلقته، قال مثلاً[٣]:

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ١٢٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ١/٣٤٣ وما بعدها، وابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/ ٧٧ ـ ٧٨.

(٣) رأى جرجي زيدان أن الرهان كان على فرسي قيس: داحس والغبراء، وفرسي حذيفة: الحظار والحنفاء (جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٣٢٠، وقارن: حسن عبد الله القرشي، فارس بني عبس، دار المعارف، ط ٢، ١٩٦٩،=

يَمِينــاً لَنِعْــمَ ٱلسَّيِّــدانِ وُجِــدْتُمــا
عَلَــى كُــلِّ حــالٍ مِــنْ سَحِيــلٍ وَمُبْــرَمِ
تَــدَارَكْتُمَــا عَبْســاً وَذُبْيَــانَ بَعْــدَمَــا
تَفَــانَــوا وَدَقُّــوا بَيْنَهُــمْ عِطْــرَ مَنْشِــمِ
وقــد قُلْتُمَــا: إِنْ نُــدْرِكِ ٱلسِلْــمَ وَاسِعــاً
بِمَــالٍ وَمَعْــرُوفٍ مِــنَ ٱلقَــوْلِ نَسْلِــمِ
فَــأَصْبَحْتُمَــا مِنْهَــا عَلَــى خَيْــرِ مَــوْطِــنٍ
بَعِيــدَيْــنِ فِيهَــا مِــنْ عَقُــوقٍ وَمَــأْثَــمِ
عَظِيمَيْــنِ فــي عُلْيَــا مَعَــدٍّ هُــدِيتُمَــا
وَمَــنْ يُسْتَبَــحْ كَنْــزاً مِــنَ ٱلمَجْــدِ يَعْظُــمِ

وقد لمع اسم عنترة في هذه الحرب، وألّفت فيه سيرة شعبية، هي «سيرة عنتر»، فيها من المغالاة والمبالغات ما لا تصدّقه العقول.

= ص ٥٥).

الفصل الخامس:

الإمارات على التخوم

(الغساسنة ـ المناذرة ـ كندة)

أولاً ـ الغساسنة:

يزعم المؤرخون أن أصل الغساسنة يمني[1]، وأنهم من قبيلة كان رئيسها قديماً عمرو مُزَيْقياء بن عامر بن ماء السماء[2]. ويذهب جرجي زيدان إلى أن أصلهم عدناني شمالي[3] من بطون كهلان[4] الذين ضاعت أنسابهم. لكن الشائع أنهم قحطانيو الأصل، سُمّوا الغساسنة نسبة إلى غسان، وهي مياه تحمل هذا الاسم[5].

---

(١) ديوان زهير، ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٨٢، وجرجي زيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٤٦.

(٣) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ١٠٢. وراجع قصته في: المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٦٧ وما بعدها.

(٤) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٤٦.

(٥) وهو يزعم أن كهلان من قبائل الشمال، لا الجنوب. المرجع نفسه، ص ٢٤٤. ويرى المسعودي أن أصلهم من مازن (مروج الذهب، ٢/ ٨٣).

نزح الغساسنة إلى الشمال، وقدموا البلقاء في الشام، وكان فيها آنذاك سليح[1]، فدخلوا معها في طاعة الروم إلى أن حدثت بينهم مشاجرة، فتحاربوا وحليفَ الروم، فغلبوه، وطلب الروم الصلح، فقبلوا شرط أن يملك عليهم من كان منهم، فأجيب طلبهم، وكان أول من ملك منهم جفنة بن علية بن عمرو بن عامر، وصادقوا الروم[2].

وقيل إنهم اصطدموا عند نزوحهم بالضجاعمة[3]، وهم من قضاعة، فغلبوهم؛ ولعلهم بنو سليح.

وقد عدد العرب ملوكهم إلا أنهم اختلفوا كثيراً فيها، وعددها الأجانب المستشرقون أيضاً: فرأى بعضهم أن ملوك غسّان اثنان وثلاثون ملكاً، ملكوا نحواً من ستمئة عام، تلك أسماؤهم[4]:

١ ـ جفنة بن عمرو مُزيقياء (٤٥ عاماً)

٢ ـ عمرو بن جفنة (٥ أعوام)

٣ ـ ثعلبة بن عمرو (١٧ عاماً)

٤ ـ الحارث الأول بن ثعلبة (٢٠ عاماً)

٥ ـ جبلة بن الحارث الأول (١٠ أعوام)

---

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٤٦.
(٢) هم بنو سليح بن علوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة (تاريخ اليعقوبي، ٢٠٦/١). وكان أول من ملك من تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك (المسعودي، مروج الذهب، ٢/٨٢).
(٣) تاريخ اليعقوبي، ١/٢٠٧.
(٤) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٤٦.

٦ ـ الحارث الثاني بن جبلة (١٠ أعوام)

٧ ـ المنذر الأكبر بن الحارث الثاني (٣ أعوام)

٨ ـ النعمان بن الحارث (١٥ عاماً)

٩ ـ المنذر الأصغر بن الحارث (١٣ عاماً)

١٠ ـ جبلة بن الحارث (٣٤ عاماً)

١١ ـ الأيهم بن الحارث (٣ أعوام)

١٢ ـ عمرو بن الحارث (٢٦ عاماً)

١٣ ـ جفنة بن المنذر الأكبر (٣٠ عاماً)

١٤ ـ النعمان بن المنذر الأكبر (عام واحد)

١٥ ـ جبلة بن النعمان (١٦ عاماً)

١٦ ـ النعمان بن الأيهم (٢١ عاماً)

١٧ ـ الحارث الثالث بن الأيهم (٢٢ عاماً)

١٨ ـ النعمان بن الحارث الثالث (١٨ عاماً)

١٩ ـ المنذر بن النعمان (١٩ عاماً)

٢٠ ـ عمرو بن النعمان (٣٣ عاماً)

٢١ ـ حجر بن النعمان (١٢ عاماً)

٢٢ ـ الحارث الرابع بن حجر (٢٦ عاماً)

٢٣ ـ جبلة بن الحارث الرابع (١٧ عاماً)

٢٤ ـ الحارث بن جبلة بن أبي شمر (٢١ عاماً)

٢٥ ـ النعمان بن الحارث[أبو كرب] (٣٧ عاماً)

٢٦ ـ الأيهم بن جبلة بن الحارث (٢٧ عاماً)

٢٧ ـ المنذر بن جبلة بن الحارث (١٣ عاماً)

٢٨ ـ شراحيل بن جبلة (١٠ أعوام)

٢٩ ـ عمرو بن جبلة بن الحارث (١٠ أعوام)

٣٠ ـ جبلة بن الحارث (٤ أعوام)

٣١ ـ جبلة بن الأيهم (٣ أعوام)

ولكن يبدو أن هذه الرواية لا تخلو من الخطأ، لأن الغساسنة كانوا لا يزالون في تهامة حتى القرن الثاني الميلادي[١].

ويعدد المسعودي الملوك التالية أسماؤهم بالتتالي[٢]: الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن (وهو غسان بن الأزد بن الغوث)، والحارث بن ثعلبة (بن جفنة) بن عمرو (بن عامر بن حارثة)، والنعمان بن الحارث بن جبلة بن ثعلبة بن جفنة، وعوف بن أبي شمر، والحارث بن أبي شمر[٣]، وجبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤٨.
(٢) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٤٨.
(٣) المسعودي، مروج الذهب، ٢/٨٣ وما بعدها.

مازن (وهو غسان بن الإزد بن الغوث)[1]. ويرى صاحب المروج أنهم أحد عشر ملكاً.

أما نولدكه المستشرق فقد اعتبر أن عددهم لا يتجاوز العشرة، حكم أقدمهم في آخر القرن الخامس الميلادي، وهم:

١ ـ جبلة أبو شمر (توفي عام ٥٠٠ م).

٢ ـ الحارث بن جبلة أبي شمر (توفي عام ٥٦٩ م).

٣ ـ المنذر أبو كرب بن الحارث (توفي عام ٥٨٢ م).

٤ ـ النعمان بن المنذر (توفي عام ٥٨٣ م).

٥ ـ الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر (توفي بين ٥٨٣ و ٦١٤ م).

٦ ـ النعمان بن الحارث الأصغر (توفي بين ٥٨٣ و ٦١٤ م).

٧ ـ عمرو أخو النعمان (توفي بين ٥٨٣ و ٦١٤ م).

٨ ـ حجر بن عمرو (توفي بين ٥٨٣ و ٦١٤ م).

٩ ـ جبلة بن الأيهم (توفي عام ٦٣٦ م).

ومهما يكن من أمر، فإن أول ملوكهم الذي يمكن الاطمئنان إليه تاريخياً هو جبلة وابنه الحارث الملقب بأبي شمر[2]، وقد هاب الرومُ أبا شمر كثيرا لأنه مثل دوراً مهماً في حروب الأمبراطور يوستينيانوس ولا

---

(١) ملك حين بُعث النبي، وقد زاره حسان بن ثابت الأنصاري (مات عام ٦٧٣ م). بالشام (راجع: المرجع نفسه، ٢/ ٨٤).

(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٩.

سيما في موقعه السامرة التي انتصر فيها. ولقبوه «باسيليوس»، ومعناه الملك، كما خلعوا عليه لقب فيلارك والبطريق، وهو من أعلى الألقاب الرومانية[1] بعد لقب الامبراطور. وقد اشتبك الحارث مع المنذر بن ماء السماء عامل كسرى أنو شروان، فانتصر هذا الثاني، وكاد يصل إلى القسطنطينية. وقتل في المعركة ابن الحارث ورفعه قرباناً للعُزّى. وتقاتل الغساسنة والمناذرة، إلى أن دخل الحارث قنسرين، وانتصر في يوم حليمة، وقتل المنذر[2]. واشتهر هذا اليوم حتى دخل أمثال العرب، فقيل: «ما يوم حليمة بِسِرّ[3]». وإلى هذا أشار النابغة الذبياني (مات عام ٦٠٢) بقوله وهو يمدح غَسّاناً:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ
بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ
تُخُيِّرْنَ مِنْ أَزْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةٍ
إِلَى ٱلْيَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كُلَّ ٱلتَّجَارِبِ[4]

والأرجح أن الحارث قد نال لقبي بطريق (باتريسيوس) وفيلارك

---

(١) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٣.

(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٠ وجرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٥٦.

(٣) راجع في هذا المثل وقصته: المفضّل بن محمد الضبّي، أمثال العرب، دار الرائد العربي، ط ١ ١٩٨١، ص ١٦٩ ـ ١٧٠. ويذهب جرجي زيدان في كتابه «العرب قبل الإسلام» إلى أن الحارث صاحب يوم حليمة هو غير الحارث بن جبلة (ص ٢٥٧).

(٤) المفضل الضبي، أمثال العرب، ص ١٧٠. وقارن: ديوان النابغة الذبياني، دار صادر، مجهول التاريخ، ص ١١.

(رئيس القبيلة) بعد هذه الموقعة[١]. واشترك مع البيزنطيين في قمع تمرد السامريين، وحارب الفرس أنفسهم مع الروم بقيادة بلساريس[٢] عام ٥٤١ م. وكان الحارث مسيحياً على مذهب اليعاقبة[٣]، فعمل على تعيين يعقوب البردعي مطران الرها أسقفا على الكنيسة السورية[٤].

ووصل سلطان الغساسنة في عهد الحارث هذا إلى الرصافة؛ ثم توفي عام ٥٦٩ م. على الأرجح[٥]. وكان عهده أزهى أيام الغساسنة.

خلف الحارث ابنه المنذر، فسار على سيرة أبيه، وحارب قابوس بن هند ملك الحيرة، وكان هذا الثاني قد أغار على أراضي الغساسنة. وبدأت معاركه معه عام ٥٧٠ م، وكانت أشهر المواقع عين أباغ[٦] التي اندحر فيها قابوس[٧]. ويبدو أن الامبراطور جوستين الثاني، خليفة يوستينيانوس، قد حاول اغتياله ففشل[٨]، وربما كان هذا بسبب اعتناق المنذر بن الحارث مذهب الطبيعة الواحدة التي لم يكن البيزنطيون يحبذونها، أو لأنهم خافوا أن يثور عليهم[٩]. واختلف معهم، إلا أنهم عادوا إلى مصالحته

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/١٠٣.
(٢) المرجع نفسه، ١/١٠٤.
(٣) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٠.
(٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/١٠٤.
(٥) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٤١، ويذكر المرجع نفسه أن ابنه تولى الحكم عام ٥٦٩ م.
(٦) راجع فيها: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/ ٩٤ ـ ٩٥.
(٧) يذهب جرجي زيدان إلى أن يوم أباغ قد حصل قبل يوم حليمة. راجع: العرب قبل الإسلام، ص ٢٥٨.
(٨) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٠.
(٩) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٤١.

عام ٥٨٠ م. عندما هدد تخوفهم عربُ الحيرة(١). وما لبثوا أن أسروه ونفوه إلى صقلية. ثم ثار ابنه النعمان، وأغار على بيزنطية، وأفسد في أراضيها، ولكنهم أسروه وقادوه إلى القسطنطينية عام ٥٨٤ م.

ثم تجزأت بلاد غَسّان وحكم كلّ قبيلة أمير. ولعل سبب هذا أن الروم تركوا حكم البلاد لأهلها(٢). إلا أن اسم الحارث الأصغر لمع بعد النعمان بن المنذر، وكانت جيوش ابنيه النعمان وعمرو تفرض سلطتها على قبائل الشمال. وبعد أن اشتبكت جيوش عمرو مع بني أسد، وأسرت عدداً كبيراً منهم، مدحه النابغة الذبياني، راجياً منه فكاكهم، ومدح أخاه النعمانَ أيضاً. ومن أروع ما جاء في مديحه(٣):

إذَا مَا غَزَوا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ
عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدي بِعَصَائِبِ
يُصَاحِبْنَهُمْ حَتَّى يُغِرْنَ مُغَارَهُمْ
مِنَ الضَّارِيَاتِ، بِالدِماءِ، الدَّوَارِبِ
تَرَاهُنَّ فَوْقَ الْقَوْمِ خُزْراً عُيُونُهَا،
جُلُوسَ الشُيُوخِ فِي ثِيَابِ الْمَرَانِبِ
... فَهُمْ يَتَسَاقَوْنَ الْمَنِيَّةَ بَيْنَهُمْ
بِأيديهمُ بِيضٌ، رِقَاقُ المضارِبِ

وما لبث كسرى أبرويز الساساني أن استولى على أورشليم ودمشق عام ٦١٣ ـ ٦١٤، فضعف شأن الغساسنة حتى كادوا أن يبيدوا. وقد ظهر

---

(١) أحمد أمين، فجر الاسلام، ص ٢١.
(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٢٣.
(٣) ديوان النابغة، ص ١٠ ـ ١١.

جبلة بن الأيهم في عهد هرقل، وكان آخر ملوكهم، وشارك في قتال العرب مع الروم، وأسلم في عهد عمر بن الخطاب.

ثانياً ـ المناذرة:

وهم عمّال الفرس في بلاد العرب، كما كان الغساسنة عمال الروم فيها. وأصلهم من الجنوب من قبائل تنوخ سكنت العراق بعد أن نزحت في أوائل القرن الثالث الميلادي مباشرة بعد سقوط الدولة الأرسانية من الأسرة الفرثية، وقيام الأسرة الساسانية عام ٢٢٦ م بقيادة أردشير بابكان[١]. وتحول مخيم التنوخيين، بعد حين، إلى قاعدة الحيرة. وقد سموا اللخميين لأن الفرس اعتادوا أن ينصبوا عليهم أميراً من لخم[٢].

وكان تاريخ هذه الدولة أوضح من تاريخ الغساسنة، لأنه دُوِّن في الكنائس والأشعار وغيرها. ولقد عُدد لنا بعضهم ملوكهم وملوك الفرس الذين عاصروهم كما يلي[٣]:

١ ـ عمرو بن عدي (٢٠ سنة)، عاصره أردشير.

٢ ـ امرؤ القيس بن عمرو (٤٠ سنة)، عاصره سابور الأول بن أردشير[٤].

٣ ـ عمرو بن امرىء القيس (٤٩ سنة)، عاصره بهرام الأول هرمز بن سابور، وبهرام الثاني بن بهرام.

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/١٠٧.
(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٧.
(٣) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٦٤.
(٤) هذا الملك هو صاحب نقش النمارة الذي ذكرنا في الفصل الثالث.

٤ ـ أوس بن قلام (٥ سنوات)، عاصره بهرام الثالث.

٥ ـ امرؤ القيس المحرق بن عمرو (٢١ سنة)، عاصره نرسي بن بهرام.

٦ ـ النعمان الأعور بن امرىء القيس (٢٨ سنة)، عاصره هرمز الثاني بن نرسي.

٧ ـ المنذر بن النعمان الأعور (٤٢ سنة)، عاصره سابور الثاني ذو الأكتاف.

٨ ـ الأسود بن المنذر (٢٠ سنة) عاصره اردشير الثاني بن سابور (٦ سنوات)، وسابور الثالث.

٩ ـ المنذر بن المنذر (٧ سنوات)، عاصره بهرام الرابع بن سابور.

١٠ ـ النعمان بن الأسود ابن أخيه (٤ سنوات)، عاصره يزدجرد الأول بهرام الأثيم.

١١ ـ علقمة أبو يعفر (٣ سنوات)، عاصره يزدجرد الأول بهرام الأثيم.

١٢ ـ امرؤ القيس بن النعمان (٧ سنوات)، عاصره بهرام جور الخامس.

١٣ ـ المنذر بن امرىء القيس (وهو المنذر بن ماء السماء الذي ذكرنا) والحارث بن عمرو الكندي (حكما ٤٩ سنة)، عاصرهما يزدجرد الثاني بن بهرام وهرمز الثالث فيروز بن يزدجرد.

١٤ ـ عمرو بن هند (مضرّط الحجارة) (١٦ سنة)، عاصره بلاش بن فيروز.

١٥ ـ قابوس أبو عمرو (٤ سنوات)، عاصره قباذ الأول بن فيروز.

١٦ ـ فيشترت أو زيد (سنة واحدة)، عاصره كسرى أنو شروان بن قباذ.

١٧ ـ المنذر بن المنذر بن ماء السماء (٣ سنوات)، عاصره هرمز الرابع بن كسرى.

١٨ ـ النعمان بن المنذر أبو قابوس (٢٨ سنة)، عاصره هرمز الرابع بن كسرى.

١٩ ـ إياس بن قبيضة (٥ سنوات)، عاصره كسرى ابرويز بن هرمز.

٢٠ ـ زاديه، فالمنذر المغرور (٤ سنوات)، عاصرهما الملوك من شيرويه بن كسرى إلى يزدجرد الثالث.

وجميع الملوك المذكورين لخميون، إلا أوس بن قلام، والحارث بن عمرو بن حجر الكندي، وعلقمة ابو يعفر، واياس بن قبيضة، وفيشترت وزاديه الفارسيان.

أما اليعقوبي فقد جعل الملوك اللخميين أحد عشر ملكاً، هم، على التوالي[1]:

١ ـ عمرو بن عديّ بن نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن مالك بن عمم بن نُمَارة بن لخم (٥٥ سنة).

٢ ـ امرؤ القيس بن عمرو (٣٥ سنة).

٣ ـ الحارث بن عمرو (٨٧ سنة)[2].

٤ ـ عمرو بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي (٤٠ سنة).

---

(١) راجع: تاريخ اليعقوبي، ٢٠٨/١.
(٢) واضح أن عدد سني حكم هذا الملك مبالغ فيه.

٥ ـ المنذر بن امرىء القيس [مُحَرِّق].

٦ ـ النعمان بن المنذر[١].

٧ ـ المنذر بن النعمان (٣٠ سنة).

٨ ـ عمرو بن المنذر.

٩ ـ عمرو بن المنذر الثاني [عمرو بن هند]، ولقبه مضرط الحجارة[٢].

---

(١) هذا الملك هو من بني الخَوَرْنَق. وسنتكلم على هذا لاحقاً.

(٢) كان العرب يهابون هذا الملك كثيراً. وحدث أن شبب طرفة باخت هذا الملك، فحقد عليه. ثم أمره والمتلمس أن يلزما أخاه قابوس. فلما أقبلا عليه ذات مرة، وكان يسكر، مكثا طوال النهار عند الباب، فهجاه طرفة قائلاً في بعض أبياته:

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ ٱلمَلْكِ عَمْرٍو،
رَغُوثاً، حَوْلَ قُبَّتِنَا تَخُورُ
مِنَ ٱلزَّمِرَاتِ، أَسْبَلَ قَادِمَاهَا،
وَضَرَّتُهَا مُرَكَّنَةٌ دَرُورُ. . .
قَسَمْتُ ٱلدَّهْرَ فِي زَمَنٍ رَخِيٍّ،
كَذَاكَ ٱلحُكْمُ يَقْصِدُ أَوْ يَجُورُ
لَعَمْرُكَ إِنَّ قَابُوسَ بْنَ هِنْدٍ
لَيَخْلِطُ مُلْكَهُ نُوكٌ كَثِيرُ
لَنَا يَوْمٌ، وِلِلْكِرْوانِ يَوْمٌ،
تَطِيرُ ٱلبَائِسَاتُ وَلاَ نَطِيرُ
فَأَمَّا يَوْمُهُنَّ فَيَوْمُ نَحْسٍ،
تُطَارِدُهُنَّ بِٱلحَدَبِ ٱلصُّقُورُ
وَأَمَّا يَوْمُنَا فَنَظَلُّ رَكْباً،
وُقُوفاً، مَا نَحُلُّ وَمَا نَسِيرُ

(ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٨ ـ ٤٩، وقارن: تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٢١٠).

=

١٠ ـ قابوس بن المنذر.

١١ ـ المنذر بن المنذر (٤ سنوات).

«وكان جميع هؤلاء الملوك من قِبَل الأكاسرة، يؤدون لهم الطاعة ويحملون الخراج[١]».

وكان أهم الملوك شبه الخرافيين الذين عُرفوا في الحيرة قبل المناذرة جذيمة الأبرش الذي عاصر الزّبّاء (زنوبيا ملكة تدمر)، ومات على يدها كما تزعم قصص العرب[٢]. ويقال إن عمرو بن عديّ ابن اخته خلفه في

= ومما قال فيه طرفة أيضاً:

إنَّ شِرارَ ٱلمُلُوكِ قَدْ عَلِمُوا
طُرّاً، وَأَدْنَاهُمُ مِنَ ٱلدَّنَسِ
عَمْرٌو وَقَابوسٌ، وَإِبْنُ أُمِّهِمَا،
مَنْ يَأْتِهِمْ لِلْخَنَا بِمُحْتَبِسِ
يَأْتِ ٱلَّذِي لا تَخَافُ سَبَّتُهُ،
عَمْرو وَقَابوسُ قَيْنَتَا عُرُسِ
يُصْبِحُ عَمْرٌو عَلَى ٱلأُمُورِ وَقَدْ
خَضْخَضَ مَا لِلرِّجَالِ كَالْفَرَسِ

وانتهى الأمر بطرفة، بعد هذا، أن مات مصلوباً.

(راجع: تاريخ اليعقوبي، ١(٢١٠ ـ ٢١١)

(١) تاريخ اليعقوبي، ١/ ٢١١.
(٢) راجع فيها: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار القلم، مجهول التاريخ، ٢/ ٣٢، وتاريخ اليعقوبي، ١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩، والمسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٦٩ وما بعدها...

حكم المناذرة[1]، وهو رأسهم. ويزعم بروكلمان أنه كان خاضعاً لنفوذ الرومان[2] حوالى سنة ٣٢٨ م. ويقال إن سابور الأول هو الذي نصّبه. وابنه امرؤ القيس صاحب نقش النمّارة دان للروم أيضاً[3]، وحارب الملك شمر يهرعش الحميري؛ وكان عاملاً على مذحج من ربيعة ومضر وعلى سائر بادية العراق والجزيرة والحجاز.

ومن أهم خلفائه النعمان الأعور (النعمان الأول) [٤٠٠ ـ ٤١٨ م]. وقد بنى قصري الخورنق والسدير لبهرام كور بن يزدجرد الأول (وهو ابنه البكر)، وكان قد أرسله إليه ليتعلم القنص والفروسية. ويقال إن النعمان كان ينظر ذات مرة من الخورنق إلى ملكه المنبسط أمامه فتذكر الموت، واحتقر شأن الملك، فاعتزل وتنسّك[4]. وفيه يقول عديّ بن زيد[5]:

وَتَـــذَكَّـــرْ رَبَّ ٱلْخَـــوَرْنَـــقِ إِذْ
أَشْـــرَقَ يَـــوْمـــاً، وَلِلْهُـــدَى تَفْكِيـــرُ

سَـــرَّهُ حَـــالُـــهُ وَكَثْـــرَةُ مَـــا
يَمْلِـــكُ، وَٱلبَحْـــرُ مُعْـــرِضـــاً، وَٱلسَّـــدِيـــرُ

فَـــٱرْعَـــوَى قَلْبُـــهُ، وَقَـــالَ: وَمَـــا
غِبْطَـــةُ حَـــيٍّ إِلَـــى ٱلْمَمَـــاتِ يَصِيـــرُ؟

ولكن كل هذا، بنظرنا، غير صحيح، ومن نسج الخيال، لأن

(١) تاريخ اليعقوبي، ٢٠٩/١، والمسعودي، مروج الذهب، ٧١/٢ وما بعدها.
(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٤٤.
(٤) تاريخ اليعقوبي، ٢٠٩/١.
(٥) ايليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ٤٥٢/٢.

النعمان كان وثنياً متشدداً، حتى إنّه تحامل على النصارى.

والمشهور أن شأن عرب الحيرة قد قوى في عهد النعمان. فبعد وفاة يزدجرد الأول حاول الفرس إقصاء ابنه عن العرش، فأيده النعمان بجيشه، ومكّنه من استرداد عرشه، وعظم هذا الأمر المناذرة. وكان للنعمان جيش قويّ فيه كتيبتان: إحداهما الشهباء، وفرسانها فُرس، والثانية دوسر، وفرسانها تنوخيون[1]؛ وكان جيشه قويّاً، ما جعله أشدّ ملوك العرب آنذاك نكاية بأعدائه. وقد غزا الشام غير مرة، وغنم وسبى كثيراً.

وبلغت الحيرة أزهي أيامها في عصر المنذر بن ماء السماء (٥٠٥ ـ ٥٠٤ م)[2] ـ وماء السماء لقب أمه. وعندما استلم قباذ الفارسي عرش الفرس ساءت العلاقة بينهما، وكانت المزدكية[3] قد انتشرت بفارس،

---

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٧٢.

(٢) عند جرجي زيدان من ٥١٠ حتى ٥٣٣ (المرجع نفسه)، وعند شوقي ضيف من ٥١٤ حتى ٥٥٤ (شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٤٤).

(٣) ظهر مزدك بفارس حوالى عام ٤٨٧ م. وهو من نيسابور، ودعا إلى مذهب جديد ينطلق من تعاليم زرادشت وماني، ويرى أن أساس الكون الهان: أهورا مزدا اله الخير ويتمثل بالنور، واهريمان اله الشر ويتمثل بالظلمة. وعنده النور عالم حساس، والظلام أعمى، جاهل. وقد منع الناس من التباغض والتقاتل وأباح النساء والأموال لأنه اعتبر أن الافتقار إليهما هو سبب التقاتل. وحثّ على البرّ لأن الإنسان يكافأ عليه. واعتبر معبوده قاعداً على كرسيه في الأعلى كقعود خسرو على عرشه، وبين يديه أربع قوى: التمييز، والحفظ، والفهم والسرور، وهذه القوى تدير العالم بسبعة من ورائها، والسبعة تدور في اثني عشر روحانيين. وكل من اجتمعت له هذه القوى صار ربّانياً في العالم الأسفل. وقد اعتنق مذهب مزدك الآلاف، ثم نكّل به وبقومه قُبَاذ سنة ٥٢٣ م. وظل بعضهم يعتنق المزدكية حتى ايام الدولة الأموية (راجع: الشهرستاني، الملل والنحل، دار=

ومملكة كندة قد ظهرت[1]، ورفض المنذر اعتناق المزدكية، وكان الحارث بن عمرو بن حجر أمير كندة يتقرب من الفرس، فولاّه قُباذ على الحيرة وعزل المنذر؛ ولما تولى كسرى أنو شروان ـ وكان يكره المزدكية ـ أعاد المنذر إلى الحكم بعد أن قتل مزدك. فهرب الحارث[2]، وحمل على نواحي الفرات الجنوبية، ثم قاد حروباً كثيرة مع الروم والغساسنة في سورية وقهرهم في معارك كثيرة، كما ذكرنا، وكاد يصل إلى انطاكية. وفي عهده، أبرمت معاهدة بين الفرس والروم أدى فيها الروم ما أدوه من أموال للفرس (٥٣٢ م). وقد أسر ابن الحارث بن جبلة الغساني، كما أسلفنا، وقدّمه ذبيحة للعزّى. وقيل إنه أحرق أربعمئة راهبة نصرانية قرباناً للعزّى أيضاً[3]. وما زال يشن الغارات على الغساسنة، حتى قُتل في يوم حليمة.

ومن أخباره أنه كان له يومان: يوم خير ويوم بؤس. فأول من يطل عليه في يوم النعيم يأمر له بمئة من الإبل؛ وأول من يطل عليه في يوم البؤس يقتله، ويطلي بدمه الصومعتين وكان ممّن قتلهم في بؤسه الشاعر عَبيد بن الأبرص (مات ٥٥٥ م)[4]. ويقال إنه قتل نديمين له، ولما صحا

= المعرفة، ١٩٨٤، ١/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠، والطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٨٨ ـ ٨٩، وأحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٠٩ ـ ١١).

(١) سنتكلم عليها بعد قليل.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ٨/ ٦٧.

(٣) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ١١٠.

(٤) راجع سيرة عبيد في: الأصفهاني، الأغاني، ١٩/ ٨٤ ـ ٩٠ وجرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، ط ٢، ١٩٧٨، ١/ ١١٦ ـ ١١٨. ولويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، دار المشرق، ط ٢، ١٩٦٧، ص ٥٩٦ ـ ٦١٥.

وأدرك ما أتت يداه أقلع عن تلك العادة[1]. ويُقال، أيضاً، إنّ أحدهم أتاه في يوم بؤسه، ويُدعى حنظلة بن أبي عفراء، فلما علم بدنو أجله استأذنه أن يرى أهله، وكفله رجل. فذهب إلى أهله ثم عاد. فأثر وفاؤه في المنذر، وأقلع عن تلك العادة[2]. وقيل إن نديمين أغضباه في بعض المناطق فدفنهما في حفرتين بالحيرة. ثم ندم على ما فعل بهما، وأقام لهما الغريين، وأصبح له يوم بؤس ويوم نعيم، كما أسلفنا.

أما حكاية عبيد مع المنذر فقد نقلها صاحب الأغاني كما يلي: «. . . ثم إن عبيد بن الأبرص كان أول من أشرف عليه في بؤسه، فقال: هلا كان الذبح لغيرك يا عبيد. فقال: أتتك بحائن رجلاه، فأرسلها مثلاً. فقال له المنذر: وأجل بلغ أناه. فقال له المنذر: أنشدني، فقد كان شعرك يعجبني. فقال له عبيد: حال الجريض دون القريض، وبلغ الحزام الطبيين، فأرسلها مثلاً. فقال له النعمان: أسمعني. فقال: المنايا على الحوايا، فأرسلها مثلاً. فقال له آخر ما أشد جزعك من الموت. فقال: لا يرحل رحلك من ليس معك، فأرسلها مثلاً. فقال له المنذر: قد أمللتني فأرحني قبل أن آمر بك. فقال عبيد: من عزيز، فأرسلها مثلاً. فقال المنذر أنشدني قولك «أقفر من أهله ملحوبُ». فقال:

أَقْفَـــرَ مِـــنْ أَهْلِـــهِ عَبِيـــدُ
فَلَيْـــسَ يُبْـــدي وَلاَ يُعيـــدُ
عَنَّـــتْ لَـــهُ عَنَّـــةٌ نَكُـــودُ
وَحَـــانَ مِنْهـــاَ لَـــهُ وُرُوَدُ

(١) الأصفهاني، الأغاني، ١٩/٨٦ .
(٢) المرجع نفسه، ١٩/٨٧.

فقال له المنذر: يا عبيد، ويحك أنشدني قبل أن أذبحك. فقال عبيد:

وَٱللَّــــهِ إِنْ مُـــتُّ لَمَـــا ضَـــرَّنِـــي
وَإِنْ أَعِـــشْ مَـــا عِشْـــتُ فِـــي وَاحِـــدَهْ

فقال له المنذر: لا بد من الموت ولو أن النعمان عرض لي في يوم بؤس لذبحته، فاختر إن شئت الأكحل، وإن شئت الأبجل، وإن شئت الوريد. فقال عبيد: ثلاث خصال كسحابات عاد، واردها شر وراد، وحاديها شر حاد، ومعادها شر معاد، ولا خير فيه لمرتاد. وإن كنت لا محالة قاتلي فاسقني الخمر حتى إذا ماتت مفاصلي، وذهلت ذواهلي، فشأنك وما تريد. فأمر المنذر بحاجته من الخمر، حتى إذا أخذت منه وطابت نفسه دعا به المنذر ليقتله؛ فلما مثل بين يديه أنشأ يقول:

وَخَيَّـرَنِـي ذُو ٱلبُـؤْسِ فِـي يَـوْمِ بُـؤْسِـهِ
خِصَـالاً أَرَى فِـي كُلِّهَـا ٱلمَـوْتَ قَـدْ بَـرَقْ
كَمَـا خُيِّـرَتْ عَـادٌ مِـنَ ٱلـدَهْـرِ مَـرَّةً
سَحَـائِـبَ مـا فِيهَـا لِـذِي خَيْـرَةٍ أَنَـقْ
سَحَـائِـبُ رِيـحٍ لَـمْ تُـوَكَّـلْ بِبَلْـدَةٍ
فَتَتْـرُكَهَـا إِلاَّ كَمَـا لَيْلَـةِ ٱلطَلَـقْ

فأمر به المنذر، ففصد. فلما مات غذي بدمه الغربان...»[1].

وخلف المنذرَ ابنُهُ عمرو بن هند (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م)[٢]، ويقال له

---

(١) حكم، برأي جرجي زيدان، من ٥٣٣ حتى ٥٧٨ م. راجع: العرب قبل الإسلام، ص ٢٧٨.

(٢) فعل هذا في يوم أوارة.

المُحَرِّق لأنه نذر أن يقتل مئة رجل من تميم حرقاً[1]. وكان وثنياً، عاتياً، مستبدّاً، حتى قال فيه أحدهم:

أَبَـى ٱلقَلْـبُ أَنْ يَهْـوَى ٱلسَّـدِيـرَ وَأَهْلَـهُ
وَإِنْ قِيـلَ: عَيْـشٌ بِـٱلسَّـدِيـرِ غَـرِيـرُ
بِـهِ ٱلبَـقُّ وَٱلحُمَّـى وَأُسْـدُ خَفِيَّـةٍ
وَعَمْـرُو بـنُ هِنْـدٍ يَعْتَـرِي ويجـورُ

وفي عهده ازدهرت الحيرة أدبياً، وتوافد عليه الشعراء، ومنهم طرفة بن العبد، وقد أشرنا إلى ذلك، والحارث بن حلّزة (مات نحو ٥٧٠ م)، وعمرو بن قميئة (٤٣٩ ـ ٥٣٠ م)، وعمرو بن كلثوم وهو الذي قتله، كما سبق أن ذكرنا.

وعندما ولي النعمان الثالث، وكنيته أبو قابوس (٥٨٠ ـ ٦٠٢ م)، نشأ في أسرة عدي بن زيد المسيحية، وكان أول من تنصّر على دين النساطرة من المناذرة؛ وامتد سلطانه إلى عمان والبحرين وقد شجّع الشعر والشعراء فتوافدوا عليه، ومنهم المنخل اليشكري ولبيد بن ربيعة (مات ٦٦١ م). ومن أهم من وفد عليه النابغة الذبياني، وكان ممدوحه. وقامت بينهما في أحد الأوقات جفوة، فأنشد النابغة بعض قصائده الاعتذارية يقول فيها[2]:

---

(١) ديوان النابغة، ص ٣٦.

(٢) يقول كعب بن زهير:

أُنْبِئْـتُ أَنّ رَسُـولَ ٱللّـهِ أوعَـدَنِـي
وَٱلعَفْـوُ عِنْـدَ رَسُـولِ ٱللَّـهِ مَـأْمُـولُ
مَهْـلاً، هَـدَاكَ ٱلَّـذِي أَعْطَـاكَ نَـافِلَـةَ
ٱلقُـرآنِ فِيـهِ مَـواعِيـظٌ وَتَفْصيـلُ

أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي
وَلاَ قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ ٱلأَسَدِ
مَهْلاً فِدَاءٌ لَكَ ٱلأَقْوَامُ كُلُّهُمُ،
وَمَا أُثَمِّرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدِ
لاَ تَقْذِفَنِّي بِرُكْنٍ لاَ كِفَاءَ لَهُ،
وَإِنْ تَأَثَّفَكَ ٱلأَعْدَاءُ بِٱلرِّفَدِ

وقد تأثر بهذه القصيدة، فيما بعد، كعب بن زُهَيْر في قصيدته البُرْدَة[1]، والأخطل التغلبي في قصيدته «خفّ القطين» يمدح بها عبد

= لاَ تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ ٱلوُشَاةِ فَلَمْ
أُذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقَاوِيلُ
(التبريزي، شرح قصيدة كعب بن زهير، دار الكتاب الجديد، ط ١، ١٩٧١، ص ٣٢).

(١) يقول النابغة مادحاً كرم النعمان:
فَمَا ٱلفُرَاتُ، إِذَا هَبَّ الرِّيَاحُ لَهُ،
تَرْمِي أَوَاذِيُّهُ ٱلعِبْرَيْنِ بِالزَّبَدِ
يَمُدُّهُ كُلُّ وَادٍ مُتْرَعٍ، لَجِبٍ،
فِيهِ رِكَامٌ مِنَ ٱلْيَنْبُوتِ وَٱلْخَضَدِ
يَظَلُّ، مِنْ خَوْفِهِ، المَلاَّحُ مُعْتَصِماً
بِالخَيْزُرَانَةِ، بَعْدَ الأَيْنِ وَٱلنَّجَدِ
يَوْماً، بِأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ،
وَلاَ يَحُولُ عَطَاءُ ٱلْيَوْمِ دُونَ غَدِ
(ديوان النابغة، ص ٣٦ ـ ٣٧)
وَمَا الفُرَاتُ، إِذَا جَاشَتْ حَوَالِبُهُ
فِي حَافَتَيْهِ وَفِي أَوْسَاطِهِ العُشَرُ

الملك بن مروان.

وقيل إنه لم يكن سهل القياد، وإنه قتل عدي بن زيد العبادي، وإن كسرى استدرجه إلى المدائن فقبض عليه وألقاه بين أرجل الفيلة فقتلته، ثم أرسل السباع عليه فأكلته(١).

وفي عهده سقطت الأسرة اللخمية، وولّى الفرسُ بعده إياسَ بن قبيصة الطائي، فثارت قبيلة النعمان، وأوقعت بالفرس هزيمة يوم ذي قار الذي ذكرنا. وما زالت الأمور مضطربة في الحيرة حتى فتحها خالد بن الوليد.

وخلاصة القول، إن المناذرة كانوا أكثر تحضُّراً وترفاً من الغساسنة(٢)، وإن تلك الإمارة كانت بإرادة الفرس ليحموا أنفسهم من غزوات البدو والروم بالعرب.

ثالثاً ـ إمارة كندة:

وهي إمارة تقع بين إمارتي (أو مملكتي) الغساسنة والمناذرة في

= وَذَعْذَعَتْهُ رِيَاحُ ٱلصَّيْفِ وَٱضْطَرَبَتْ
فَوْقَ ٱلْجَآجِيءِ مِنْ آذِيِّهِ غُدُرُ
مُسْحَنْفِرٌ مِنْ جِبَالِ ٱلرُّومِ، يَسْتُرَهُ
مِنْهَا أَكَافِيفُ فِيهَا دُونَهُ زَوَرُ
يَوْماً، بِأَجْوَدَ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ،
وَلاَ بِأَجْهَرَ مِنْهُ حِينَ، يُجْتَهَرُ

(الأخطل، ديوان الأخطل، دار الكتب العلمية، ط ١ ١٩٨٦، ص ١٠٣ ـ ١٠٤).

(١) راجع سيرته في: تاريخ اليعقوبي، ١/ ٢١٣ وما بعدها.

(٢) يذهب أحمد أمين إلى أن الغساسنة كانت عقليتهم أرقى من المناذرة لمجاورتهم اليونان والبيزنطيين. (فجر الإسلام، ص ٢٠).

شمالي نجد، وتدين بولائها لليمن. ويذهب النسابون إلى أنها إحدى بطون كهلان[1]، فهي من عرب الجنوب على الأرجح. وكان العديد من سكانها يقيمون في حضرموت حتى مجيء الإسلام.

ويروي المؤرخون أن حروباً قامت بين قبيلة كندة وحضرموت أفنت أكثرها. ثم لما ملّكت حضرموت علقمة بن ثعلب لانت كندةُ قليلاً. وتفرق أهل اليمن، فصارت هذه القبيلة إلى أرض معدّ، حيث ملك أول ملوكهم، ويقال له مرتع بن معاوية بن ثور[2]. وملوك كندة، وفقاً لرواية اليعقوبي، ثمانية، يوضحهم الجدول التالي:

١ ـ مرتع بن معاوية بن ثور (٢٠ سنة)

٢ ـ ثور بن مرتع (كان حكمه قصيراً)

٣ ـ معاوية بن ثور بن مرتع

٤ ـ الحارث بن معاوية (٤٠ سنة)

٥ ـ وهب بن الحارث (٢٠ سنة)

٦ ـ حُجر بن عمرو [آكل المرار][3] (٢٣ سنة)

٧ ـ عمرو بن حجر (٤٠ سنة)

٨ ـ الحارث بن عمرو [وهو والد الشاعر امرىء القيس].

---

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٨٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ٢١٦/١.

(٣) سُمّي بهذا الاسم لكشرٍ كان به. والمرار (ويقال له المرير) نبات إذا ما أكلته الإبل تقلّصت مشافرها فبدت أسنانها.

ويرى أكثرهم أن أوائل ملوك كندة الذين كان لهم شأن وصنعوا التاريخ كان حجر بن عمرو آكل المرار. وكل من ملك، قبله لم يكن له شأن كبير. فمع آكل المرار هذا فُرضت سيادة كندة. ويروى أنه كان رضيع حسّان بن تبّع الحِمْيَرَي، وأن هذا عينه حاكماً على القبائل التي انتصر عليها عام ٤٠٨ م[١] وقد ذكرنا حَسّاناً هذا مع أخبار طسم وجديس. وامتد سلطان آكل المرار إلى اليمامة، وتخوم إمارة المناذرة. ودانت له تغلب وبكر. وقد حالف بين كندة وربيعة بالذنائب.

وجاء بعده ابنه عمرو بن حجر، ويدعى المقصور، ولعله سمي بهذا لأنه كان مقتصرا على ملك أبيه[٢]. وقيل إن هذا يدل على محدودية سلطانه[٣]. وقد نقضت تغلب وبكر الاتفاقية التي أبرمتاها في عهد أبيه، واشتعلت بينهما، في أثناء حكمه، حرب البَسوس التي سبق أن اشرنا إليها.

ومات هذا الملك على يد الحارث بن أبي شمّر في غزوة بالشام. فجاء الحارث ابنه، وكان أعظم ملوك كندة إلى درجة أنه استطاع الوصول إلى حكم الحيرة نفسها، كما أسلفنا، في عهد قُباذ الفارسي بعد أن خلع المنذر بن ماء السماء. وكان له أولاد أربعة، ملك كل واحد منهم على قبيلة، وهم:

١ ـ حجر، ملك على أسد وكنانة.

٢ ـ شرحبيل: ملك على غنم وطيء والرباب.

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ١١٤ ـ ١١٥.
(٢) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٨٨.
(٣) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٤٨.

٣ ـ سلمة الغلفاء: ملك على تغلب والنمر بن قاسط.

٤ ـ معد يكرب: ملك على قيس عيلان.

ثم قَتَل الحارث المنذر بن ماء السماء، وقَتَلَ معه أربعين معه أربعين أميراً من بيته. وما لبث المنذر أن أوقع بين أولاد الحارث الأربعة، فتقاتل سلمة وشرحبيل، وعندما سقط الثاني ندم سلمة، وأنشد قائلاً:

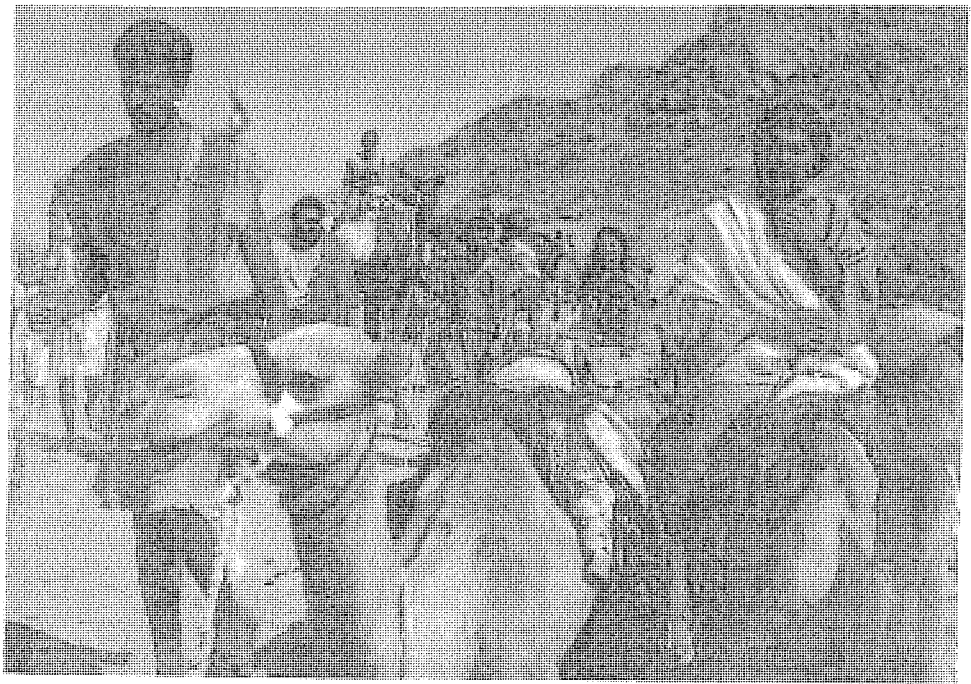
إنَّ جَنْبِـــي عَلَـــي ٱلفِـــراشِ لَنَـــابٍ،
كَتَجَـــافِـــي ٱلأَسِـــرُّ فَـــوْقَ ٱلظِـــرَابِ
مِـــنْ حَـــدِيـــثٍ نَمَـــا إلَـــيَّ، فمـــا
يَـــرْقَـــأُ دَمْعِـــي، وَلاَ أَسِيـــغُ شَـــرَابـــي[١]

وما لبث بنو أسد أن تنكّروا لعمرو بن حجر، وهو والد امرىء القيس الشاعر، فاجتمعوا على قتله، فقتلوه. وقد ذكرنا قصة امرىء القيس وثأره لوالده. وإذا راجعنا شعره تبيّن لنا أنه يمتلىء حقداً على بني لخم. وقد مات، وفقاً للروايات، سنة ٤٥٠ م. عند أنقرة[٢].

ونبغ في صدر الإسلام من كندة المقنع الملقّب بالنبي الكذاب الذي ظهر في خراسان[٣]، والأشعث بن قيس الحضرمي[٤]، والفيلسوف يعقوب بن اسحق الكندي (مات ٨٧٣ م. تقريباً).

---

(١) راجع كل هذا في تاريخ اليعقوبي، ١/ ٢١٧.
(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب، ١/ ١١٥.
(٣) الموضع نفسه.
(٤) راجع ذكره في: تاريخ اليعقوبي، ٢/ ١٣٢.





الفصل السادس:

الشعر في الجاهلية

١ ـ مقدمة:

عرف العصر الجاهلي حركة شعرية ناشطة. فقد «كان الشعر فطرياً في العرب، يندر فيهم من لا يستطيعه، حتى المجانين واللصوص، ناهيك بالنساء[١]». وكان للشاعر الجاهلي مكانة مهمة ومرموقة، لأن العرب حرّضوا أبناءهم على إتقان الشعر ونظمه، فالشعراء كانوا، عندهم، «حماة الأعراض، وحفظة الآثار، ونقلة الأخبار؛ وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس، ولذلك كانوا إذا نبغ فيهم شاعر من قبيلة أتت القبائل الأخرى فهنأتها به، وصُنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالمزامر كما يصنعن في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان لاعتقادهم أنه حماية لاعراضهم، وذَبٌّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة لذكرهم[٢]». ويبدو أن الشاعر كان من أرقى طبقات الجاهليين[٣]، ومن أكرم الناس على قومه، «لأن موقف الشاعر في قبيلته كان التغني بمناقبها، ورثاء موتاها،

---

(١) جرجي زيدان؛ تاريخ التمدن الإسلامي، تقديم حسين مؤنس، دار الهلال، لا تاريخ، ٢/ ٣١.

(٢) المرجع نفسه، ٢/ ٣٠ ـ ٣١.

(٣) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٥٦.

وهجاء أعدائها . . .»[1]

٢ ـ أنواع الشعر الجاهلي:

لم يعرف الجاهليون في حياتهم التفكير العميق والمتواصل، ولا اطلعوا على الفلسفة لأن بيئتهم لم تسمح لهم بذلك على الأرجح. ويعني هذا أن التفكير العميق المتواصل لم يكن من طبيعة الجاهليين، ولاسيما في الشمال، لأن الطبيعة المحدودة التي أحاطت بهم لم تفتح لهم أفقاً واسعاً، فغابت الملاحم عن شعرهم وكذلك المرسح، ذلك لأن هذين النوعين من الشعر يحتاجان إلى تفكير مليّ، عميق ناضج؛ فالملاحم لابد لها من غوص على الجواهر لاستخراج البواطن منها، ورصد حركات الوجود فتكون لهم ميثولوجيا متكاملة متماسكة كاليونان؛ والمرسح يحتاج إلى دقة أيضاً لتتبُّع مسار الشخصية وتطورها ونموّها.

أما الشعر التعليمي فقد عرفه الجاهليون، وأكثروا من نظم الحِكَم، لأنها أمر يستخرج من الحياة اليومية، ولا يحتاج إلا إلى خبرة في الحياة وتأمّل. فالحكم ترد في نصوصهم الشعرية فِلَذاً وابياتاً، ولا تحتاج إلى تماسك وتكامل كما هي الحال مع الفلسفة. وفي الواقع، عنيَ العربي «بتقصي الجزئيات والتفاصيل في هذه المجسمات القليلة المتناثرة أمامه. فإذا بشعره أصبحت له مهمة العلم الذاتي في تسمية التفاصيل، وتجعل مجرد ذكر الاسم يستدعي حضور الشيء بصورة تشمل حقيقته، كما اكتشفتها خبرة العربي. إن أسماء هذه التفاصيل لم تثبت خبرة وصفية وتجريبية فحسب، بل حاولت أن تستكمل جميع مظاهر الموضوع في ذاته،

---

(١) الموضع نفسه.

وفي علاقته بالانسان مكانيا، وخلال تغيّر أحواله حسب تعاقب لحظات الماضي والحاضر والمستقبل[1]». ويعكس الشعر الحِكَميّ التعليمي إرادة الشعر في أن يكون وجودها معقولاً، أي مُرَوَّضاً، فإذا فهمته وقعّدته تمكنت من أن تضبطه وتتحكم به، فلا تفلت الأشياء من يدها. ذلك لأن الزمن عدوّ الجاهلي، يسرق منه حياته، ولا يبقى له إلا على أمل متكسّر كالآل، يطارده بين كثبان الصحراء وأهوالها. والحكمة، هنا، تعويض للإنسان من مأساة التلاشي، كأنها تصنع عقلا للوجود، فلا يخبط الإنسان فيه خبط عشواء، ولا يفقد كلياً زمام الأمور.

وتعكس الحكمة والشعر التعليمي الحكمي، من جهة أخرى، وعياً بدائياً بالوجود، متلمّساً موجوداته. ولذلك نجد الأبيات الحكمية تخترق حتى حالات الفخر والغزل، واندفاعات الذات في القبض على نفسها وهي تقتنص الاحساس بالتملّي، وغبطة الحضور.

أما الشعر الغنائي فكان الأشيع في الجاهلية بأنواعه المتعددة، لأنه ينطلق، أساساً من عفوية الإنسان، ولا يحتاج إلى أناة وتأمل. وهو وليد الانفعال، حيث تتصعّد الأحاسيس، ويتحول الوجود، داخل القصيدة، إلى ما يشبه الأغنية. وفي الواقع، فإن مبدأ الإنشاد قد ساد الشعر، وذلك لأن الجاهليين رووه كأنهم ينشدون[2]. وغنّي عن القول إن الموسيقى تصعّد الحالات النفسية والتأثير. هكذا فإن «العامل الجمالي الموجّه للقصائد الجاهلية لم يكن هو عامل الاتحاف بالجمال البسيط، ولكنه عامل خلق

(١) إيليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١/ ٢٣.
(٢) يقول شوقي ضيف إن الشعر في الجاهلية كان يصحبه الغناء والموسيقى، «فهو شعر غنائي تام». (العصر الجاهلي، ص ١٩٣).

الروعة عن طريق تفجير موسيقى ملحمية من خلال الألفاظ المسوقة بأنغام النظم والقافية. ولهذا كان على مريد الشعر الجاهلي ألا يقرأ قصائده صامتا، بل عليه أن يتلفّظها أصواتاً مسموعة، ومنغّمة حسب إيقاعاتها، ومضخّمة تارة، وملطفة تارة أخرى، كسمفونية أصوات بشرية[1]».

وكان الفخر أهم أنواع الشعر لأنه يمدّد الذات ويوسّعها فيعوّض للشاعر من نقص حياته وتهديد العدم المستمر. وسواء أكان الشاعر يفخر بفروسيته أم بفحولته (الغزل) أم بميته (الرثاء) فإنه يجعل من ذاته تتعالى على سواها. ومشكلته مع الدهر قائمة، تطارده أنّى كان. ولقد «كان تقلّب إيقاع الزمان، ما بين الجدب والخصب، ما بين حل الحبيبة وترحالها، ما بين رحلتي الصيف والشتاء، يجعل حياة الجاهلي متأججة دائماً بين قطبي التعارض. وكان الشعور بالدهر وحدثانه يضع الإنسان الجاهلي دائماً موضع الفريسة، وفخاخ العدم تحيط به من كل جانب. ولذلك فإن نشوة التمرد بالحب والخمر والفروسية وصوفية الخضوع تلتقيان في روحية الشعر الجاهلي لتتكاملا، وتعبّرا عن طرفي التجربة اليومية[2]». وكانت هذه الحماسة نوعاً من طاقة تختزنها القبيلة للدفاع عن نفسها ودرء خطر القبائل الأخرى، أو مواجهة أخطار الطبيعة[3]. ولعل الوصف يعكس لنا دقة العين

---

(١) إيليا حاوي ومطاع صفدي، موسوعة الشعر العربي، ١/٢٦.
(٢) المرجع نفسه، ١/٢٩. «ولقد كان على الشاعر الجاهلي أن يشتق جميع انفعالاته من توتر أساسي خلاق، هو الحماسة للفخر، الحماسة للشجاعة والكرم والأصالة، للّهو والتمتع ومعاقرة الجنس والخمر. ففي تلك الحماسة تأكيد لا شعوري إوليّ ضد الدهر، ضد الصحراء، ضد الجدب والمرض والجوع والذل الروحي». (المرجع نفسه، ١/٣٠)
(٣) الموضع نفسه.

الجاهلية في التقاط تفاصيل الوجود، والقبض على أصغر حركاته. فقد كان الوصف ماديّاً، شبيهاً جداً بحياة الجاهليين، عاجزا عن النهوض إلى رحاب المجرد، أو عن تجريد الموجودات وتنزيهها.

وإذا عدنا إلى المعلّقات الجاهلية[1]، أو إلى أية قصيدة طالعتنا ظاهرة التفكك، وهو تفكك يعكس نمط الحياة المهَدَّد باستمرار من جهة، وحياة العرب المتنقلين في الصحراء بدواً يبحثون عن الكلأ والماء بلا استقرار، من جهة ثانية. إنه يعكس تشقق الحياة وتفسّخها، وهول الطبيعة الخطرة في البيئة الصحراوية.

٣ ـ أصل الشعر الجاهلي:

نرجح أن الشعر قد تطور من أناشيد دينية ترفع للآلهة، كان العرب «يستعينون بها على حياتهم، فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم، كما نشأ شعر الرثاء، وهو في أصله تعويذات للميت حتى يطمئن في قبره، وفي أثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التي تكمن فيها آلهتهم، والتي تبعث فيهم الخوف. ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلي تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة[2]». ولعل هذا التطور قد حصل عبر فترات

---

(١) أطلق لفظ المعلقات «على مجموعة القصائد التي تعتبر من أجود الشعر وأدقه معنى وأوسعه خيالاً وأبرعه أسلوباً وأسمحه لفظاً وأعمقه معنى وأمدّه قافية وأصدقه تصويراً للحياة» التي عرفها عرب الجاهلية. (مفيد قميحة، المعلقات العشر، دار الفكر اللبناني، ط ١ ١٩٩١، ص ٣٢).

(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ١٩٦.

زمنية متباعدة تسبق المرحلة التي وصلنا منها شعر، أي في ما اصطلح على تسميته بالجاهلية الأولى. وهذا أمر عرفته الشعوب، لأنها توجهت إلى آلهتها بأدعية وصلوات وأناشيد خاصة تختلف عن الكلام العادي، ثم تطورت أنغام هذه الأناشيد والصلوات لتصير مع الوقت قصائد وإيقاعات شعرية. وربما كانت لا تزال في نفوس الجاهليين «بقية من هذه الصلة بين الشعر ودعاء الآلهة[1]».

٤ ـ علاقة الشاعر بالسحر والكهانة:

والدليل على الأصول الدينية للشعر الجاهلي ما اقترن به الشعر من شعائر وطقوس في بعض الأحيان، وما قيل في الشاعر من أمور. «فمن قبل أن ينحدر الهجاء إلى شعر السخرية والاستهزاء، كان في يد الشاعر سحراً يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحري. ومن ثم كان الشاعر، إذا تهيأ لإطلاق مثل ذلك اللعن يلبس زيًّا خاصاً بزيّ الكاهن. من هنا أيضاً تسميته بالشاعر، أي العالم، لا بمعنى أنه كان عالماً بخصائص فن أو صناعة معينة، بل بمعنى أنه كان شاعراً بقوة شعره السحرية، كما أن قصيدته كانت هي القالب المادي لذلك الشعر[2]». لهذا السبب كان الشعر سلاحاً خطراً بين يدي من يملكونه، «وهو سلاح لا يقل قدرة في الفتك

---

(١) الموضع نفسه.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٤٦. ويقول شوقي ضيف: «فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يقرن بما تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا». (العصر الجاهلي، ص ١٩٧)

عن السيف والسنان، ولذلك كان العرب يتّقون حامليه[1]».

هكذا، فإن الشاعر، كما اعتقد الجاهليون، كان يملك قوة سحرية، لأنه على اتصال بالجن، أو بشياطين الشعر، حتى إن بعضهم زعم «أن كلاب الجن هم الشعراء»، ومن هذا القبيل قول عمرو بن كلثوم:

وَقَـــدْ هَـــرَّتْ كِـــلابُ الجِـــنِّ مِنّـــا
وَشَـــذَّبْنَـــا قَتَـــادَةَ مَـــنْ يَلِينـــا[2]

وزعموا أن «مع كل شاعر شيطاناً» يقول الشعر، حتى قال بعضهم:

إنِّـــي وَكُـــلُّ شـــاعـــرٍ مِـــنَ البَشَـــرْ
شيطـــانُـــهُ أُنْثـــى وشَيْطـــانـــي ذَكَـــرْ[3]

وقال آخر:

إنِّـــي وَإنْ كُنْـــتُ صَغيـــرَ السِـــنِّ   وَكَـــانَ فِـــي العَيْـــنِ نُبُـــوٌّ عَنِّـــي
فَإنّ شيطاني كَبِيرُ الجِنِّ[4]

وقال الراجز:

إنَّ الشيـــاطِيـــنَ أَتَـــونـــي أَرْبَعَـــهْ   فِي غَبَش ٱللَّيْلِ وَفِيهِمْ زوْبَعَه[5]

(١) مفيد قميحة، المعلقات العشر، ص ٢٣.
(٢) الجاحظ، كتاب الحيوان، ٢/٤٦٧.
(٣) الموضع نفسه.
(٤) الموضع نفسه.
(٥) المرجع نفسه، ٢/٤٦٨.

وقال غيره:

إذا مَـــا تَـــرَعْـــرَعَ فِينَـــا ٱلغُـــلاَ
مُ فَلَيْـــسَ يُقَـــالُ لَـــهُ مَـــنْ هُـــوَهْ
إذا لـــم يَسُـــدْ قَبْـــلَ شَـــدِّ ٱلإزَا
رِ، فـــذلـــك فِينَـــا ٱلَّـــذِي لاَهُـــوَهْ
وَلِـــي صَـــاحِـــبٌ مِـــنْ بَنِـــي الشَّيْصَبَـــا
نِ، فَطَـــوْراً أَقُـــولُ وَطَـــوْراً هُـــوَهْ[1]

والمقصود في البيت الأخير بصاحب الشاعر من بني الشيصبان «شيطان الشعر» أو جنّيّه. وقد ذكر بعض المستشرقين كلاماً يفيد ما نقول، حين أورد: «ومن حيث الأسبقية، يجب أن يُسْتَدَل أنّ الشياطين تتنزّل على الشعراء؛ ولهذا يؤكد القرآن أنهم يتنزّلون على كل مبدع أثيم ليذيعوا له غالباً الأباطيل. وأشعار الشعراء هذه معزوّة إلى الشياطين الذين يسترقون السمع مِمّا في السماء، فيأتيهم غضب الله فيرجمون بشهاب ثاقب. وتأتي هذه مرة أخرى لتربط الشعراء بالوحي والإلهام[2]».

والدليل على عقيدة شيطان الشعر ما جاء في القرآن الكريم من آيات تنفي الشعر عن النبي محمد، وتقول إنه ليس ساحراً؛ ومن هذه الآيات:

---

(١) الموضع نفسه.
(٢) د. س. مرجليوث، أصول الشعر العربي، تعريب: يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٨١، ص ٥٤. ويروي شوقي ضيف أن «في أخبارهم أنّ الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حلة خاصة، ولعلها كحلل الكهان، وحلق رأسه، وترك له ذؤابتين، ودهن أحد شقّي رأسه، وانتعل نعلاً واحدة...» (العصر الجاهلي، ص ١٩٧)

﴿وقالوا: إنْ هذا إلا سحر مبين﴾[1] ـ ﴿وما تنزّلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزول﴾[2] ـ ﴿هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين ؟ تنزّل على كلّ أفّاك أثيم؛ يلقون السمع واكثرهم كاذبون. والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم ترَ أنهم في كلّ وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون...﴾[3] وغير هذا كثير. وقد ظل بعض الشعراء، في الإسلام، يوهم الناس أن له تابعاً من الجن[4]. وغنيّ عن الذكر الأذى الذي ألحقه الشعراء المشركون بالدعوة والإسلام عندما بدأ النبي يبشّر بالدين الجديد، ما اضطره إلى استدعاء شعراء مسلمين للرد عليهم، ولكسر شوكتهم.

٥ ـ المعلقات:

والمعلقات قصائد من أجود ما قال العرب في جاهليتهم، حتى جعلها بعضهم أفضل القصائد التي قيلت في ذاك العصر. قال صاحب «العقد» إن العرب «عمدت إلى سبع قصائد تخيّرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلّقتها بين أستار الكعبة... والمذهّبات سبع، وقد يقال لها المعلّقات[5]». وقال صاحب «المقدمة»: «وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كلّ واحد منهم ديباجته على

---

(١) الصافات/ ١٥.
(٢) الشعراء/ ٢١٠.
(٣) الشعراء/ ٢٢١ ـ ٢٢٦.
(٤) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ١٩٧.
(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/٩٨ج وقارن: مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ٣/١٨٣ وما بعدها، وجرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ٢/ ٣١.

فحول الشأن وأهل البصر ليتميز حوله حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجّهم...»[١] ويقول السيوطي: «وكانت المعلّقات تسمّى المذهّبات، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر، فكتبت في القباطيّ. بماء الذهب، وعلّقت على الكعبة؛ فلذلك يقال: مذهّبة فلان إذا كانت أجود شعره[٢]». وقال بعضهم إنّ الملك كان «إذا استجيدت قصيدة يقول: علّقوا لنا هذه، لتكون في خزانته[٣]».

ولكن شوقي ضيف ينفي هذه الآراء ويعارضها، قائلاً: «أما ما يقال من أن المعلقات كانت مكتوبة ومعلقة في الكعبة فمن باب الأساطير، وهو في حقيقته ليس أكثر من تفسير فسّر به المتأخرون معنى كلمة المعلقات[٤]». ويرى أنها تعني المقلّدات والمسمّطات، وأن العرب سموا بهذين الاسمين قصائدهم الجيدة الطويلة؛ ثم يستشهد بابن النحاس (توفي عام ٩٤٩ م). الذي يقول فيها: «لم يَثْبتْ ما ذكره الناس من أنها كانت معلّقة على الكعبة[٥]». ونحن أميل إلى هذا الرأي نظراً إلى ضعف الكتابة عند الجاهليين[٦]، فقد سميت كذلك لأنها من الأعلاق أي النفائس[٧].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٨٠ - ٥٨١.

(٢) السيوطي، المزهر، ٢/ ٤٨٠.

(٣) الموضع نفسه.

(٤) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ١٤٠.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٦) على الرغم مما ذكر بعضهم، ومنهم شوقي ضيف في كتابه «العصر الجاهلي» من أن كثيراً من الجاهليين كانوا يعرفون الكتابة وإن بعضهم كان يعرف الفارسية كعدي بن زيد، وإن بعض الشعراء ألمّ بها (ص ١٩) فإنها ظلت محدودة بنظرنا لأن أحداً لم يعثر على شعر جاهلي مخطوط، ولأن الشعراء انفسهم ممن عرف الكتابة لم يستعملها لنقل شعره.

(٧) ربما كان طول المعلقات سبباً من أسباب أهميتها، لأن العرب لم تكن لهم =

وقد اختلف العرب أيضاً في عددها، فجعلها بعضهم سبعاً، وجعلها آخرون عشراً. وقد اختلفوا أيضاً في أسماء أصحابها. لكن الأشيع بينهم أن أصحاب المعلقات السبع هم: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، ولبيد بن ربيعة (مات ٦٦١)، وعمرو بن كلثوم، وعنترة بن شداد، وطرفة بن العبد، والحارث بن حلّزة. ومن جعلها عشرا زاد عليهم: النابغة الذبياني، والأعشى الأكبر (مات ٦٢٩ م). وعبيد بن الأبرص. وقد أضاف ابن خلدون على هذه الأسماء علقمة بن عَبَدَة[١] [ويقال له علقمة الفحل] (توفي عام ٦٠٣ م)، كما نقل السيوطي عن بعضهم أن أصحاب المعلقات هم: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة، مسقطا الحارث بن حلزة وعنترة[٢]. ولنا عودة، بعد قليل، إلى بعض أصحاب المعلقات.

أما مطالع المعلقات العشر، فهي:

١ ـ معلقة امرىء القيس (٦٩ بيتا):

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسِقْطِ ٱللِوَى بَيْنَ ٱلدَخُولِ فَحَوْمَلِ

= قصائد طويلة إلا في حوالى أوائل القرن السادس للميلاد. كما يذكر ابن سلاّم. (طبقات الشعراء، ص ١٨)، ويقول الجاحظ مؤكداً هذا: «وأما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن، أول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له، إلى أن جاء النبي بالإسلام، خمسين ومئة عام؛ وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام». (كتاب الحيوان، ١/ ٥٤). كما يعزو جرجي زيدان تطور الشعر الجاهلي ونهضته إلى استقلال عرب الشمال عن اليمن، وإلى حروبهم مع بعضهم فيما بعد، وقد حدث هذا في مرحلة متأخرة. (تاريخ آداب اللغة العربية، ١/ ٦٣ ـ ٦٤)

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٨١.

(٢) السيوطي، المزهر، ٢/ ٤٨٠.

٢ ـ معلّقة زهير (٦٠ بيتا):

أَمِـــنْ أُمِّ أَوْفَـــى دِمْنَـــةٌ لَـــمْ تَكَلَّـــمِ
بِحَـــوْمَـــانَـــةِ ٱلــدَرَّاجِ فَـــٱلْمُتَثَلَّـــمِ

٣ ـ معلّقة طرفة (١٠٣ أبيات)[1]:

لِخَـــوْلَـــةَ أَطْـــلاَلٌ بِبُـــرْقَـــةِ ثَهْمَـــدِ
تَلُـوحُ كَبَـاقِـي ٱلـوَشْـمِ فِـي ظَـاهِـرِ ٱلْيَـدِ

٤ ـ معلّقة لبيد (٨٨ بيتا):

عَفَـــتِ ٱلـــدِيَـــارُ مَحَلُّهَـــا فَمُقَـــامُهَـــا
بِمِنًـــى تَـــأَبَّـــدَ غَـــوْلُهَـــا فَـــرِجَـــامُهَـــا

٥ ـ معلّقة عمرو (١٠٣ أبيات):

أَلاَ هُبِّـــي بِصَحْنِـــكِ فَـــٱصْبَحِينَـــا،
وَلاَ تُبْقِـــي خُمُـــورَ ٱلأَنْـــدَرِينَـــا

٦ ـ معلّقة عنترة (٧٥ بيتا):

هَـــلْ غَـــادَرَ ٱلشُّعَـــرَاءُ مِـــنْ مُتَـــرَدَّمِ
أَمْ هَـــلْ عَـــرَفْـــتَ ٱلـــدَارَ بَعْـــدَ تَـــوَهُّـــمِ ؟

---

(١) بلغت هذه المعلقة في كتاب مفيد قميحة «المعلقات العشر» ١٠٨ أبيات، ولكن الأرجح أنها أقلّ.

٧ ـ معلقة الحارث بن حلّزة (٩٨ بيتا):

آذنَتْنَــــــا بِبَيْنِهَــــــا أَسْمَــــــاءُ
رُبَّ ثَــــاوٍ يُمَــــلُّ مِنْــــهُ الثَّــــوَاءُ

٨ ـ معلقة الأعشى (٦٣ بيتا):

وَدِّعْ هُــرَيْــرَةَ إِنَّ ٱلــرَّكْــبَ مُــرْتَحِــلُ
وَهَــلْ تُطِيــقُ وَدَاعــاً أَيُّهَــا ٱلــرَّجُــلُ ؟

٩ ـ معلقة النابغة (٥٠ بيتا):

يــا دارَ مَيَّــةَ بِــٱلعَلْيَــاءِ فَــٱلسَّنَــدِ
أَقْــوَتْ وَطَــالَ عَلَيْهَــا سَــالِــفُ ٱلأَبَــدِ

١٠ ـ معلّقة عبيد (٤٥ بيتا):

أَقْفَــــرَ مِــــنْ أَهْلِــــهِ مَلْحُــــوبُ
فَــٱلقُطَّبِيَّــاتُ فَــٱلــذَّنُــوبُ

واللافت أن معظم المعلقات تبدأ بالوقوف على الأطلال أو بذكر رحيل الأحبة، الا معلقة عمرو بن كلثوم التي تبدأ بذكر الخمر. وأنَّ أطولها معلقتا طرفة وعمرو، وأقصرها معلقة عبيد، وكل هذه المعلّقات مفككة، متعددة الموضوعات كمعظم الشعر الجاهلي.

الفصل السابع:

مبحث في الوقوف على الأطلال

أ ـ مدلول الوقوف على الأطلال (اللحظة الطللية)

شكّلت الصحراء صورة قاسية للمكان في حياة الجاهليين وأدبهم، وانعكست في حياتهم. فهي، بجفافها القاتل، وأشكالها ومناظرها المحدودة، ومناخها الفتّاك، تحدوه على ممارسة نظام خاص في حياته يمكّنه من البقاء والاستمرار، وإلاّ فالموت لا مفرّ منه. فالصحراء صورة لعنف الطبيعة[1]، حيث يبقى العدم المهدّد ماثلاً أمام الإنسان، يترصّده في كل مكان، ويجعل الزمن سيّالاً يفرّ من الجاهليين، وبفراره يملأ حياتهم بالشقوق التي يتسلل إليها العدم، ثم يأكلها هذا من الدهر، حتى تغدو هشّة، ثم تنكسر وتتفتّت[2]. وليس هذا غريباً لأنه ظاهرة عامة ارتبطت بضعف الإيمان الديني وقصره عند الجاهليين، على الرغم من جملة الأديان السائدة.

---

(١) والوقوف على الأطلال يخفي قلقاً من «قهر الطبيعة للحضارة»، وتهديهما «لمنشآت الإنسان الحضارية». يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، دار الحقائق، ط ٢، ١٩٨٠، ص ١٢٧.

(٢) حاول بعض المستشرقين أن يقدم للطللية معنى وجودياً قريباً مما نذكر. راجع المرجع نفسه، ص ١٢٥ (عن: مجلة المعرفة السورية، مقال: الوجودية في الجاهلية، حزيران ١٩٦٣، ص ١٥٩ وما بعدها).

ولما كان ثقل الحياة وصعوبتها، ونظامُ عيشه أيضاً، يُضطران الجاهلي إلى التنقُّل من مكان إلى آخر، تنقُّلاً مستمرّاً، بحثاً عن الماء والكلأ ـ أي عن عنصري البقاء الأولين ـ، كان يُخَلِّف وراءه بعض البقايا التي يُقال لها «أطلال»، وهي عبارة عن النؤي (الحفرة التي تقام حول الخيمة أو المكان منعاً من تسرّب الماء إليها)، والأوتاد، والأثافيّ (وهو جمع أثفية، أي حجارة الموقدة)، وبعض قطع الحبال، ومرابط الإبل، وغير ذلك... ويحدث أن يمر الشاعر بهذا المكان، وقد كانت له فيه ذكرى سعيدة مع إحدى نساء القبيلة، فتهيج فيه عواطفه، وتستفيق فيه خيالاته، ويأخذه الحنين، فيقف على الأطلال ويبكي ويستبكي... وهذا، تحديداً، هو معنى وقف على الأطلال.

على أن الوقوف على الأطلال ما لبث أن تحوّل إلى ظاهرة في الشعر الجاهلي بعامة، كما كان ظاهرة في الحياة الجاهلية نفسها. وكثرت فيه الدراسات، بعضها يدرس، وبعضها يناقش ويحلّل.

ونحن، إذ ننظر إلى هذه الظاهرة وندرس مدلولها، وما يمكن أن نسميه اللحظة الطللية في الشعر الجاهلي، نجد فيها ثلاثة مدلولات رئيسة، هي الآتية:

أولاً: مدلول اجتماعي: تعكس لنا الأطلال نمط الحياة في المجتمع البدويّ، فهو قائم على رحلة أبدية في الفيافي الآبدة، يتجلى فيها صراع الإنسان مع الطبيعة ـ ذاك الصراع الذي يشكل أساساً في الحياة البدوية، ولا يمكن، بحال، أن نغضّ الطرف عنه[1]. فالبدو، بعكس الحضر، لم

(١) «إن الأرض بخصبها وجفافها هي السر الكبير في حياة القبيلة العربية في العصر =

يستقروا في مكان، بل عاشوا متنقلين في المغارات، وقد ألفوا الوحدة والتغرّب، وشَظَف العيش وقسوة الزمن، يجرون وراءهم ماشيتهم التي يعيشون منها، من لحمها وصوفها ولبنها.

تعكس لنا الأطلال، إذاً صورة مجتمع بدائي، في اضطراب دائم؛ أو، صورة مجتمع مهدّد، يترصّده العَدَم في هول الرمال المترامية، وجفافها الرهيب[1].

ثانياً: مدلول فني: من جهة أخرى، صار للوقوف على الأطلال مدلول فني. فقد كانت القصيدة من قبل، على ما يرى بعضهم أبياتاً متفرقة قليلة، ثم تحوّلت إلى قصيدة طويلة متفاوتة الطول، ذات نمط خاص في البدء والعرض. يقول ابن سلّام الجمحي (مات ٨٤٦ م): «ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة؛ وإنما قُصّدت القصائد وطُوّل الشعر على عهد عبد المطّلب وهاشم بن عبد مناف، وذلك يدل على إسقاط عاد وثمود وحِمْيَر وتبّع[2]». وتحول الوقوف على الأطلال إلى عادة اتبعها الجاهليون لافتتاح قصائدهم، واستمرت هذه العادة مع الشعراء في العصور المتأخرة، بل إن بعض شعراء الانحطاط

= الجاهلي». (وهب رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ط ١ ١٩٧٥، ص ١٩).

(١) «لهذا كله، لم يكن صدفة أن تكشف الطللية عن حقيقة فحواها أن الطبيعة هي قطب التضاد مع الإنسانية، ما يجعلها، على القطع، شكلاً من أشكال التعبير عن صراع الإنسان مع الطبيعة بالدرجة الأولى. إنها محاولة يائسة لنفي الطبيعة، أو لمقاومتها، ولنقل لتقليم براثنها وأنسنتها وتحويلها من شيء في ذاته إلى شيء لذاتنا». (يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص ١٣٧ ـ ١٣٨).

(٢) ابن سلام، طبقات الشعر، ص ١٨.

وأوائل النهضة قلّد هذه العادة(١)!

---

(١) يقول حسين عطوان في مقدمة القصيدة الطللية: كانت المقدمة الطللية أكثر المقدمات التي افتتح بها الشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام قصائدهم التي نظموها في الموضوعات التقليدية. وكل ما أصابها من تغيُّر في صدر الإسلام هو أن بعض الشعراء المخضرمين لم يعنوا برسم المشاهد المفصلة لها، تلك التي كان أسلافهم في الجاهلية يعددون فيها آثار الديار... محصين ما بدّل معالمها من رياح عاصفة، وأمطار شديدة، وسنوات متطاولة، وذاكرين ما حلّ بها بعد رحيل أهلها عنها... إلا شعراء معدودين من المخضرمين، ظلّوا يتريّثون في صنع قصائدهم، ويحافظون في فواتحها على أصول هذه المقدمة ورسومها.

فلما انتهت تلك الفترة الانتقالية من تاريخ الشعر العربي، وبدأت القبائل تستقر في منازلها ومحالّها... كانت المقدمة الطللية أشهر المقدمات التي استهل بها الفحول... قصائدهم، مبدئين ومعيدين في معانيها وصورها، ومرددين تقاليدها وعناصرها...» (حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، دار المعارف، ١٩٧٤، ص ٣٥).

ويقول في المقدمة الطللية في العصر العباسي: «أصابها ما لم يصب غيرها من التجديد سواء من الناحية الموضوعية أو من الناحية الفنية، فهي من الناحية الموضوعية لم تعد أوعية تسكب فيها الدموع حسرة على المنازل الدائرة وعهود الحب الضائعة فحسب، بل تحوّلت أيضاً عند بعضهم إلى منابر يعلنون من فوقها آراءهم في الحياة سائرين في الطريق نفسها التي مهدها بعض الشعراء الأمويين قبلهم». (حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول، دار المعارف، ١٩٧٤، ص ٢٢)

ويقول علي الدرويش (مات ١٨٥٣ م). مقلّداً المطالع الطللية:

قِفَا نَبْكِ مِنْ مَرْأَى ٱلْمَغَارَةِ يَا عَلِي،
وَحُزْنِ ٱلْأَمَانِي مِنْ جَزِيرَةِ مَنْيَلِ؛
جَرَى سَائِلاً دَمْعِي عَلَيْهَا لِمَا رَأَى،
وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ؟
أَرَتْنَا حُرُوفُ ٱلدَّهْرِ فِيهَا عَجَائِباً:
تَبَدَّلَ رُمَّانُ ٱلرِّيَاضِ بِحَنْظَلِ

=

ولعل المقدمات الطللية قد عرفت قبل امرىء القيس نفسه الذي قيل إنه كان أول من وقف على الأطلال وبكى واستبكى ووصل إلينا شعره يقول ابن سَلّام: «ليس أنه (اي امرؤ القيس) قال ما لم يقولوا(أي العرب)، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها استحسنها العرب واتبعه فيها الشعراء، منها استيقاف صحبه، والبكاء في الديار...»[1] وقد رأى بعضهم أنها «تنتمي إلى عصور سحيقة لا يسع الوعي التاريخي ـ لانعدام المصادر ـ أن يطالها[2]». وربما كان ذِكُر امرىء القيس ابنَ خذام[3] الذي بكى قبله على الأطلال، فقلّده هو، دليلاً على قدم هذا التقليد.

وربما كان ارتضاء هذا التقليد الفني مردّه إلى أنه ينقل حياة البدو من العرب نقلاً أميناً صادقاً. فمعانيه، وألفاظه، وتعابيره، وصوره، وتشابيهه كلها مستوحاة من تجربة يومية متكررة، لا مفرّ منها لاستمرار الحياة، تحدّرت إلى الفن الشعري، فاستساغها الذوق العام وشجعتها الطبيعة الهائلة، والعقلية العربية المثالية إلى إحياء الماضي.

= بَكَــى ٱبْــنُ حُجْــرٍ لَــوْ رَآهَــا لَمَــا بَكَــى
بِسِقْــطِ ٱللِّــوَى بَيْــنَ ٱلــدَّخُــولِ فَحَــوْمَــلِ

(ميشال جحا، خليل مطران، دار المسيرة، ط ١ ١٩٨١، ص ١٧، عن ديوان علي الدرويش: الإشعار بحميد الأشعار، ١٢٧٠ هـ.، ص ٢٤١).

(١) ابن سلّام، طبقات الشعراء، ص ٢٧.
(٢) يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص ١٢٠.
(٣) يقول ابن سلّام في ابن خذام المذكور: «هو رجل من طيىء لم يسمع شعره الذي بكى فيه، ولا شعر غير هذا البيت الذي ذكره امرؤ القيس». (طبقات الشعراء، ص ٢١).

ثالثاً: مدلول نفسي: من جهة ثالثة، كان للوقوف على الأطلال مدلول نفسي عميق، فهو يجسّد مأساة الجاهلي أمام الزمن وصراعه مع العدم. فمن المهم جداً في الطللية أن ننظر إليها على أنها تعكس «صلة الإنسان بالطبيعة بوصفها قهراً يمارس على الروح عبر الجفاف والقحط وشحّ المياه وموارد العيش...»[1] فالأطلال نفسها صورة لما تسرّب اليه العدم وأفسده وأباده. ولكنها، من جهة أخرى، صورة للسعادة المندثرة التي لا يلبث الزمن أن يجرفها معه. فالطلل يتحول إلى قطعة وجدانية يحيا فيها صاحبها؛ ولكنه يقف وجهاً لوجه أمام رحلته الدائمة وصراعه الأبدي مع الطبيعة والزمن والموت وحس العقم الذي يحيل حياته ومحيطه إلى بَوَار. وما لا شك فيه أن «عقدة العقم (في الطبيعة والحضارة والإنسان ككائن متوالد) هي أسّ الطللية ونواتها التي تتمحور حولها وتتنامى بالانبثاق عنها[2]». إنها انعكاس لصراع الحياة مع الموت، فالوقوف على الأطلال يتحول «إلى وقوف غريزة الحياة التي يمثلها الشاعر في وجه غريزة الموت التي يمثلها الجدب والكبت الجنسي معاً[3]».

ولعل المدلول النفسي للظاهرة الطللية في الشعر الجاهلي من أهم المداليل، لأنها تسلّلت إلى الوعي العربي، واستقرت في وجدان الجماعة، حتى صرنا أمام اهتزازين متعاكسين: حركة الموت والعدم، وهي حركة تدفع الذات نحو السكون والامحاء والغياب، وتجبرها، بالتالي، على ترك وعيها بالوجود؛ وحركة الحياة والحيوية، وهي حركة لتصعيد الذات وملئها

---

(١) يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص ١٣٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٤١.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٤٤.

بوعيها للقبض على كل رعشة واختلاجه من رعشات الوجود واختلاجاته.

هكذا، فإن الطلل «يمثل انهزام الحركة أمام السكون[1]...» وهذا يمثال انهزام الحياة أمام الموت؛ «ولمّا كان الطلل يمثل الانطفاء عبر السكينة والهدم، لا عبر التجربة اللذّيّة الملبّاة، فإن الوقوف عليه هو رفض مبطّن للواقع، رفض للقهر الموجه إلى كل من اللبيدو والعالم الحضري، وإلى تجميد الحركة في الطبيعة أيضاً، اللهم إلا حركة التدمير والإعدام المواظبة على استمراريتها، والتي لا يملك الإنسان أن يفعل إزاءَها شيئاً سوى معاناة الشَّجَن[2]».

وليس الحزن الذي يواكب أحياناً، بل كثيراً، المقدمات الطللية إلا صورة لحسرة الذات التي تعجز عن دفع تقدّم العدم، فتتكمش بالماضي ـ لأن في الماضي تصعيداً لها عبر السعادة أو اللذة ـ، وتتنّفس رائحة الوجود القاسي الذي يهددها بالسحق والتغييب...

٢ ـ قراءات من الشعر الجاهلي للوقوف على الأطلال

١٠٢ ـ قراءة من معلقة امرىء القيس:

٢.١.١ ـ التعريف بامرىء القيس (٤٩٢ ـ ٥٥٢ م):

هو امرؤ القيس بن حجر الكندي ولد بنجد، أوائل القرن الخامس الميلادي، ونشأ في قبيلة كندة. وكان يتحدر من أسرة ملوك حكمت بني

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٤٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

وائل. وكان والد امرىء القيس حُجْر مُمَلّكا على بني أسد، يشتد في معاملتهم، ويغلظ فيهم، ويتربصون هم به، حتى اهتزّ ملك الحارث أبيه، بعد أن خلفه كسرى أنو شروان، فانقضوا عليه، وقتلوه، وغدروا به.

وكان حجر قد تبرّأ من ابنه امرىء القيس وخلعه لتهتّكه ومجونه، ومطاردته نساء القبيلة طويلاً، وتشبيبه بهنّ. فعاش مع طائفة من الصعاليك، وتصعلك مثلهم، وضرب في المفازات والصحارى...

وكان امرؤ القيس يطارد الملذاتِ غيرَ آبهٍ بحياة الملك وأبّهته. ولكنه، عندما بلغه نعي أبيه هاله الخطب الفادح، وعاد إلى نفسه، وأخذ يضرب بين القبائل، يؤلّبها، ويحرّضها على الثأر من بني أسد، وقد ورث ملكاً مهتزّاً، مصدّعاً، وأحسّ بأن أباه «ضيعّه وهو صغير، وحمّله دمه وهو كبير».

وواقعَ امرؤ القيس أسداً، وجعلها في ترحال دائم، ولكن هذا لم يرو غليله، لأنه كان يريد أن يفني هذه القبيلة ويُبيدها، ويبني ملكَ أبيه من جديد. ولكن المنذر بن ماء السماء ملك المناذرة لم يتركه يرتاح، فهدده، وهدّده أحلافه من القبائل، فانفضّوا عنه شيئاً فشيئاً، وخذله أتباعه تباعاً، وتقاعسوا، وتركوه... فيمّم شطر يوستينيانوس قيصر الروم، مستنصراً، مستجيراً، فأمدّه بجيش، وأكرم وفادته... وقيل إن القيصر أهداه حلّة مسمومة، قرّحت جسده، وقضت عليه، وقيل غير هذا... ولكن المعروف أن الشاعر لاقى حتفه في طريق عودته من بلاد الروم، وربما كان مات بأنقرة، بعد أن أمضّه الألم نفساً وجسداً.

٢.١.٢ ـ بعض ما قيل فيه:

قال الجاحظ فيه: «إنه أول من نظم الشعر عند العرب. ورأى ابن

سلاّم الجمحي صاحب «طبقات الشعراء» إنه في رأس الطبقة الأولى. وأجمع القدامى على أنه «أول من وقف وبكى واستبكى وقيّد الأوابد».

وقالت «موسوعة الشعر العربي» فيه: «ومع أن النقد الداخلي لقصائده يظهر أن الشعر الجاهلي أوفى إليه وقد استقرّ على سُنَّة، وجرى على عمود معروف فإن امرأ القيس ارتقى بتلك التجارب إلى ذروته، مصوّراً أقصى ما أدركته النفس الجاهلية، في موقفها من الحياة والعالم، وفي دهشتها وغبطتها، أمام مظاهر الكون، تكتشف ألوانه وتُفكك أجزاءه، وتؤلفها بعضاً مع بعضٍ من جديد، وتعكسها على حدقة حسيّة، تؤخذ بما ظهر من معاني الأشياء غافلة، إلا لِماماً، عَمّا استتر وتبطّن منها. فالطبيعة تبدو في شعره، وقد استكملت غايتها، وأدركت أقصى حدودها، انتشر الجمال بأرضها وسمائها، وتجسّد في عناصرها، لا يعروه أمامها قلق أو حيرة، ولا ينبعث فيه قنوط أمام تكرارها ورتابتها. بل إنها تنداح أمام ناظره كشريط ضاحك... وكبساط من السعة والفرح، مدّته أمامه الحياة، ليقيم عليه أفراحه... أما المرأة، وهي صنو الطبيعة وكمالها في شعره، فيتولاّها، حيناً بالحسّ والغريزة وحيناً بالبراح والحنين، وموقفه منها يرمز إلى موقفه من الحياة جميعاً...»

٢ . ١ . ٣ ـ المعلقة ومناسبتها:

روى القاضي الزوزني مناسبة المعلقة قال: «ذكر رواة أيام العرب أن امرأ القيس بن حجر بن عمرو الكندي كان يعشق عنيزة ابنة عمه شرحبيل، وكان لا يحظى بلقائها ووصالها، فانتظر ظعن الحي، وتخلّف عن الرجال، حتى إذا ظعنت النساء سبقهنّ إلى الغدير المسمّى دارة جلجل، واستخفى، ثم علم أنهنّ إذا وردن هذا الماء اغتسلن. فلما وردت العذارى اللواتي

كانت عنيزة فيهنّ وَنَضَوْنَ ثيابَهُنَّ وشَرَعْنَ في الانغماس في الماء ظهر امرؤ القيس وجمع ثيابهنّ وجلس عليها، ثم حلف على ألاّ يدفع إليهنّ ثيابهنّ إلا بعد أن يخرجن إليه عاريات، فخاصمنه زمناً طويلاً من النهار، فأبى إلا إبرار قسمه، فخرجت إليه أوقحهنّ، فرمى بثيابها إليها، ثم تتابعن حتى بقيت غنيزة وأقسمت عليه، فقال: يا ابنة الكرام لا بد لك من أن تفعلي مثل ما فعلن، فخرجت إليه، فرآها مقبلة ومدبرة، فلما لبسن ثيابهنّ أخذن في عذله، وقلن: قد جوّعتنا وأخرّتنا عن الحي. فقال لهنّ: لو عقرت راحلتي أتأكلن؟ قلن: نعم. فعقر راحلته ونحرها، وجمعت الإماء الحطب، وجعلن يشوين اللحم إلى أن شبعن، وكانت معه ركوة فيها خمر فسقاهنّ منها، فلمّا ارتحلن قسمن أمتعته، فبقي هو دون راحلة، فقال لعنيزة: يا ابنة الكرام لا بد لك من أن تحمليني، وألحّت عليه صواحبها أن تحمله على مُقدم هودجها، فحملته، فجعل يدخل رأسه في الهودج يقبّلها ويشمّها وذكر هذه القصة في أثناء القصيدة».

٢.١. ٤ ـ الوقوف على الأطلال في المعلقة:

١ ـ قِفَـا نَبْـكِ مِـنْ ذِكْـرَى حَبِيـبٍ وَمَنْـزِلِ
بِسِقْـطِ اَللِـوَى بَيْـنَ الـدَخُـولِ فَحَـومَـلِ(١)

---

(١) السِقْط: ما انقطع من الرمل. اللوى: الرمل الذي يعوج ويرقّ ويلتوي فتبدو من دونه الأرض الصلبة التي تصلح لغرس الأوتاد. الدخول وحومل: اسم موضعين.
يقول قف وساعدني في البكاء على حبيب افتقده، وعلى منزل مهجور يثير اللوعة واقع في منقطع الرمل الذي يعوج ويلتوي.
ومن عادات العرب المناداة بالمثنى أي أن ينادوا شخصاً واحداً ويخرجوا الكلام فخرج الخطاب مع اثنين؛ ومن هذا قول الشاعر:
=

٢ - فَتُوضِحَ فَالمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا
لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ(١)

٣ - تَرَى بَعَرَ الآرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا
وَقِيعَانِهَا كَأَنَّهَا حَبُّ فُلْفُلِ(٢)

= فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ
وَإِنْ تَرْعَيَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا

وقيل إن الشاعر يفعل هذا لأن الرجل يكون أدنى أعوانه اثنين: راعي إبله وراعي غنمه. وربما نادى المفرد بالجمع، ومن هذا قول القرآن الكريم: «قال: ربّ أرجعونِ. . .» (المؤمنون/ ٩٩).

(١) توضح والمقراة: اسم موضعين يتوسطهما سقط اللوى - لم يعف: لم يَزُل - رسمُها: أثرها - الجنوب: الريح الجنوب - الشمأل: الريح الشمالية، وفي هذه الكلمة ستّ لغات، هي الشمال والشمأل والشامل والشمول والشَّمَل والشِّمْل؛ ونسج الريحين هو اختلافهما عليها وستر إحداهما إياها بالتراب وكشف الأخرى لها.

يقول تغيّر ذاك الطلل إلا أن أثره لم يَمَّحِ لأنه عندما تغطيه ريح تكشفه أخرى. وقال القاضي الزوزني إن المقصود قد يكون أيضاً «لم يقتصر سبب محوها على نسج الريحين بل كان له أسباب منها هذا السبب، ومرُّ السنين، وترادُف الأمطار وغيرها. وقيل: بل معناه لم يعف رسم حبها من قلبي وإن نسجتها الريحان». (شرح المعلقات السبع، ص ٨).

(٢) الآرام: ج. رِئم، وهو الظبي الخالص البياض، ويسكن الرمل - عَرَصات: ج. عَرَصَة، وهي البقعة الواسعة التي ليس فيها بناء. وعرصة الدار ساحتها - قيعان: ج. قاع وقيعة، وهي هنا ساحة الدار - الفلفل: حبّ هندي، وهو معروف.

يقول إن الدار قد صارت مقفرة، تلعب فيها الظّباء، وتنثر فيها بعرها كحب الفلفل. وواضح هنا التركيز على المادية في الصورة والدقة.

٤ ـ كَــأَنِّــي، غَــدَاةَ ٱلبَيْــنِ، يَــوْمَ تَحَمَّلُــوا
لَــدَى سَمُــرَاتِ ٱلحَــيِّ نَــاقِــفُ حَنْظَــلِ(١)

٥ ـ وُقُــوفَــاً بِهَــا صَحْبِــي عَلَــيَّ مَطِيَّهُــمْ
يَقُــولُــونَ: لا تَهْلِــكْ أَســىً وَتَجَمَّــلِ(٢)

٦ ـ وَإِنَّ شِفَــائِــي عَبْــرَةٌ مُهَــرَاقَــةٌ
فَهَــلْ عِنْــدَ رَسْــمٍ دَارِسٍ مِــنْ مُعَــوَّلِ(٣)؟

---

(١) غَداة: ضَحْوَةٌ، أول النهار ـ البين: الفراق ـ تحمّلوا: حملوا امتعتهم ورحلوا؛ ويقال أيضاً احتملوا؛ ـ لَدَى: عِنْد ـ سَمُرات: ج. سَمُرَة وهي شجرة من شجر الطلح ـ الحيّ: القبيلة ـ الحنظل: نبات مرّ شديد المرارة إذا مسّه اللسان دمعت العين لمرارته؛ ونقف الحنظل: شقّه.

يصوّر امرؤ القيس هنا نفسه باكياً لرحيل الأحبة، ويقول كأنه، في لحظة الفراق باكراً عند الفجر، يقف عند شجرات المكان الذي ضربت فيه القبيلة، ينقف الحنظل، فتنهمر دموعه بشدة لحزنه.

(٢) وقوفاً منصوبة على الحال، فكأنه يقول: قفا نبكِ في حال وقف أصحابي مطيهم عليّ ـ المَطِيّ: ج. مطيّة، أي المراكب التي يُركب مطاها، أي ظهرها. وقيل إنه مشتقة من المطو وهو طول السير والمدّ فيه ـ أسىً: حزناً، وقد نُصبت لأنها مفعول لأجله.

يقول إن أصحابه قد أوقفوا من أجله مطاياهم، وراحوا ينصحونه بالصبر، ويقولون له: لا تمت من شدة الحزن. والمبالغة هنا واضحة.

(٣) العبرة: الدمعة ـ مهراقة: مسكوبة ـ رسم: أَثَر ـ دارس: زائل ـ معوّل: ما يُعْتَمَد عليه؛ وقيل بل هو مَبْكيّ، من أعول أي بكى رافعاً صوته، ومنه لفظة العويل.

يقول: إن شفائي من حرقة الحب هو بسكب الدمع، ولكن لا جدوى من البكاء والعويل عند الآثار البائدة. والاستفهام هنا يراد منه النفي، أي إنه استفهام استنكاري.

٧ ـ كَـدَأْبِـكَ مِـنْ أُمِّ ٱلحُـوَيْـرِثِ قَبْلَهَـا
وَجَـارَتِهَـا أُمِّ ٱلـرَّبَـابِ بِمَـأْسَـلِ[١]

٨ ـ إِذَا قَـامَتَـا تَضَـوَّعُ ٱلمِسْـكُ مِنْهُمَـا
نَسِيـمَ ٱلصَّبَـا جَـاءَتْ بَـرِيَّـا ٱلقَـرَنْفُـلِ[٢]

٩ ـ فَفَـاضَـتْ دُمُـوعُ ٱلعَيْـنِ مِنِّـي صَبَـابَـةً
عَلَـى ٱلنَّحْـرِ، حَتَّـى بَـلَّ دَمْعِـيَ مِحْمَلِـي[٣]

---

(١) دأب: عادة، وقد يراد بها السعي ومتابعة العمل ـ أم الحويرث وأم الرباب: اسم امرأتين كان امرؤ القيس يراودهما ـ مأسل: موضع ماء، وقيل هو جبل (إذا كسرت عينها)، وهذا هو الصواب.

يقول إن عادتك في هذه المرأة كعادتك في أم الحويرث وأم الرباب، أي أنه لم يكن له حظ مع هذه كما لم يكن له حظ مع تينك المرأتين. وضمير الها في لفظة «قبلها» عائد إلى المرأة التي يبكي عليها واقفاً عند الاطلال ـ وقد تكون ابنة عمه عنيزة ـ.

(٢) تضوّع: فاح وانتشرت رائحته ـ الرَّيَّا: الرائحة الطيبة ـ

يستطرد من وصف الطلل إلى وصف حبيبتيه، ويقول إذا قامت أم الحويرث وأم الرباب فاح منهما وانتشر المسك كالطيب ينتشر عندما تحمل ريح الصبا رائحة القرنفل معها. والفرق بين ضاع وتضوّع هو في درجة المبالغة.

(٣) الصبابة: الحنين والشوف الرقيقان؛ ويقال: صَبَّ الرجُلُ يصبّ صبابة ـ النحر: الرقبة ـ المحمل: حَمّالة السيف. وقد نصب الشاعر لفظة صبابةً على أنه مفعول لأجله.

يقول إن دموعه قد سالت بشدة وغزارة لفرط وجده وحبه وحنينه إلى حبيبتيه، فبلغت رقبته، ثم تعدّتها حتى وصلت إلى حمّالة سيفه. ومن الواضح هنا أنه يريد المبالغة.

٢ . ١ . ٥ ـ تحليل الأبيات:

١ ـ ٢ ـ البيتان الأول والثاني: لعل المخاطبة بالمثنى أن تكون عادة من عادات العرب كما ذكروا. ولكننا نرى، إلى جانب هذا، أن في مثل هذه المناداة انشطارَ الذات إلى ذاتين: الذات التي عانت التجربة بكل تفاصيلها، والذات التي تستعيد هذه التجربة. وليس الحنين إلى الماضي إلا التمني العميق أن يتوقف التغير الرهيب الذي يجرف معه كل شيء. فالزمن، من خلال هذا العُرف، آنات سيّالة، صائرة، لا حول للإنسان أمام تحوّلها ولا قوّة، ومن هنا حضورُ الغيابِ المستمر في القصيدة الجاهلية من خلال الوقوف على الطلل وذكر الأحبّة.

والبكاء هنا، من الذكرى. فالمنزل والحبيب كلاهما طيف دائر في ذهن الشاعر، يستحضره بحسرة وأسى هما صورة لخسارة الإنسان المحتَّمَة لما يحبّ.

وتعداد الأماكن أيضاً عادة درج عليها العرب. ولكنها، في نظرنا، ترتبط بالمدلول المأسوي للغياب والتغييب. فكأن الشاعر يتمسّك بالمواضع التي وطئها بحثاً عن السعادة أو في طريقه إليها. وليست واقعية الشاعر ههنا واقعية عادية، إنها ممزوجة بوجدانية متحسرة. ولعل معظم الشعر الجاهلي يخبط بين واقعية مسطحة لا بد منها لأنها انعكاس لعقل بدائي، وبين وجدانية منسحبة على الأشياء، لأن العرب في الجاهلية، بعامة، يعيشون بأعصابهم... فإن أحبّ أحبَّ حتى العبادة، وإن كره كره حتى الموت.

أما صورة الريح التي تتلاعب بالتراب، فتهيله تارة فوق الأطلال وطوراً تحسره عنها، فانعكاس لفعل الزمن الجاهلي الذي يجرف معه كل

شيء إلى غير عودة. إنها حال التغير تضرب الأشياء والذوات فتسلب البشر أغلى ما يملكون: عمرهم.

وفي الشعر الجاهلي تنعكس صورة الذات الطفلة التي يهمها أن تستوضح الأشياء. فالسبب ـ أو العلاقة السببية ـ مستحكمة في هذين البيتين: قِفَا نبكِ (سبب الوقوف: البكاء)/ لم يعفُ رسمها لِمَا نسجتها. . . (سبب عدم امّحاء الرسم: ما نسجته. . .) وهذا انعكاس لعقل بدائي لا يقبل بالتجريد لأنّ التجريد كثيراً ما يتخطى العلاقة السببية إلى الغائيّات، والغائيات تعصى على البدائيين.

وربط الحبيب بالمنزل في البيت الأول من خلال التجاور والعطف (حبيب ومنزل) هو ربطُ الحال بالمكان، أي تحويل الهامد الجامد إلى جمرة حسية انبعثت من ثباتها إلى الحياة، ورسمت بِجَمْرِها أثراً في الذات.

وإن التركيز على المكان (خمسة أسماء امكنة متتالية: سقط اللوى ـ الدخول ـ حومل ـ توضح ـ المقراة) هو انعكاس لعلوق الجاهلي بالأرض، وانشداده إليها على الرغم من قسوته وتغريبه. ومعنى الانشداد إلى الأرض هو طغيان الحسّ على سواه أي الانطلاق من أقرب الأحاسيس وأبسطها للتفاعل مع الوجود. من هنا، قلنا، شابت واقعية الجاهليين وجدانية كثيرة هي تنفيس عن حركة أعصابهم.

ـ **البيت الثالث**: وصف المكان الخَرِب هو بمنزلة توكيد على مأساة الغياب، وإلحاح، بالتالي، على واقع العدم الذي يحيق بالذات ويحاصرها. فالفراغ، وحده سيّد الموقف، والمنزل الذي كان، من قبلُ، مأهولاً بات مرتعاً لحيوان الصحراء، آبِداً. إنه الخواء الذي يتسلل إلى الذات من نقصان الوجود المتدرّج؛ أو هو، إن شئت، صورة المصير الذي

تنغمس فيه الذات حتى العظام. وما يزيد من الحسرة أن هذا المكان كان فيه التملي من السعادة، فإذا هو بَوَار.

ـ **البيتان الرابع والخامس**: التصعيد العاطفي الذي نقف عليه هنا هو من مميزات الشعر الجاهلي، ومن مميزات الذات التي تتصرف بأعصابها. ويعكس لنا البَيْنُ مأساة الفراغ والزوال، وتواكبه لفظتان مكمّلتان: تحمّلوا ـ المطيّ. إنها نماذج للسفر المستمر، أي للاغتراب في الصحراء. هذا الاغتراب انعكاس لطبيعة الصراع الحاد مع الزمن من هنا حدّة الشعور بالأسى: نقفُ الحنظل (البكاء الشديد ـ الدمع المنهمر) والهلاك من الأسى. والدلالة الزمنية واضحة هنا: غداة ـ يوم. إنها صورة الزوال لأنهما مختصتان بالماضي، ولكن هذا الماضي لا ينقطع في الأمس، بل يستمر حتى اليوم ويخترق آناتِ الزمان بكامله، حتى تشمل المأساة زمنَ الانسان. والصحب ههنا شهود على هذه المأساة. إنها شهادة على الغياب والقدر المحدقَيْن اللذين يضربان في الفيافي والقفار، ويترصّدان الجاهلي كلَّ لحظة، وفي كل زاوية من زوايا الصحراء.

هذا التصعيد في المشاعر هو ما يجعل من الطلل كتلة وجدانية، تنبض عاطفة، وترشح مشاعرَ مرهفة. وهذا الاطار الذي يرافق ظاهرة الغياب ينسج أفق القصيدة: المطايا ـ المَتَاع ـ الصحب ـ الذات الراحلة ـ والفراغ...

وفي الوقوف أيضاً توقُّف: إنه يستتبع في الذات توقيفاً للحركة الزمنية المتسارعة التي تجرف بتسارعها كل شيء، ومنها الذات. إنها تعكس حال انجذار في الزمن، أو نوعاً من تجلّي الزمن في الذات لتتمكن الذات من أن تتملاّه.

وفي التوقف، وفي استعادة اللحظات الهاربة نوع من تمُّلك الزمن؛ وفي التجمُّل (الصبر) أيضاً نوع من استعادة زمام المصير، أملاً في أن يكون الإنسان سيد الزمن الآتي. كأنما الصحب يطلب من الشاعر، هنا، أن يستعيد أنفاسه لمعاودة رحلته في الزمن والوجود.

ـ **البيت السادس**: تتجلى في هذا البيت مأساة الاستحالة: البكاء واقع محتوم ناتج عن تصعيد المشاعر، ولكن الجدوى معدومة منه. فهذا العلاج النفسي يعكس أيضاً فراغه وعقمه، ولو نظرياً.

هكذا يتحول الرسم الدارس كتلة وجدانية تتجسّد في الذات، ثم تخرج منها مشروعاً لخلاص موهوم؛ والشاعر يستفهم عن جدوى هذا الشفاء استفهاماً فيه من اللوعة والحسرة ما فيه من من مأساة البطلان والعقم. إنه خلاص عقيم، عبثي.

والرسم الدارس ههنا لم يدرس بعد. إنه دارس في الزمن الآتي. يستشرف الشاعر مأساة الزوال في الأشياء ويرثيها فيما هو يرثي نفسه، ويصعّد أزمته ليصل بها حَدّ العَجَب: ففي استفهام الشطر الثاني من التعجب ما فيه من الإنكار (المأسوي) والحسرة. ولعل هذه الدمعة أن تكون مشروعاً للمصالحة مع الوجود.

ـ **البيتان السابع والثامن**: هنا انتقال مفاجىء إلى الغزل، ودخول مدهش للمرأة إلى حرم المسألة: فالمرأة، في نهاية المطاف، ومن خلال هذين البيتين، تصعّد حدّة المأساة، لأنها تصوّر السعادة الهاربة من بين أصابع الإنسان كالزئبق. وكأنما المرأة، هنا، جرح لا بد منه: جرح رائع يخترق القلب، ولكنه يمكّن الذات من الوقوف في وجه الزمن. وعندما يطارد الجاهلي المرأة يتحوّل إلى فارس يعاني المعركة ـ وإن وجدانيةً ـ

ويتحمّل مسؤولية اختياره. إنها اشبه بقدره الذي يقبض عليه، ولا يملك هو إلا أن يختاره. ولكنه، إذ يختار، يرتاح، ويَعَوّض من شعوره بالنقصان والخيبة أمام الزمن، ويوقف اغترابه مرحلياً. وعندما يتملك الجاهليّ المرأة فكأنه يقبض على الزمن ويستحضره أمامه، ويقتحمه اقتحاماً مدهشاً.

وتبرز المرأة، في هذين البيتين، متعددة، كثيرة (أم الحويرث ـ وأم الرباب). كأن التملّي يستوجب التعدد. ويعني التملّي من المرأة، واحدةً أو متعددة، قبضاً على الزمن السيّال، وسيادة. إنها فروسية الاقتحام الأنثوي. ولا ترضي الشاعرَ امرأةٌ، بل ترضيه المرأةُ. فللإباحية هنا دورها النفسي وتفسيرها. وهي بمنزلة انتقام من الزمن، واغتصاب له. الشاعر يروّض بإباحيته الزمان، والمكان، والقدر.

وعندما يرصد امرؤ القيس في البيت الثامن حركة المرأة يرصد معها حركة خفيّة هي حركة المسك المتضوّع. إنه يجسّد حركة الشعور الذي يواكب الحركة الجسدية، وبالتالي يربط بين حركة الشعور المتجسّد وحركة الجسد. ولكن الحركتين كليتهما متداخلتان فحركة الجسد ههنا، وهي جنسية ـ أي لها خلفيات شعورية ـ تشبه حركة الرائحة ـ والرائحة لا تُرصَد حركتها، وهي تتحول هنا إلى حركة شعورية.

وليست المرأة، أخيراً كياناً خاصاً مستقلاً. إنها جزء من لوحة الصحراء وإطارها، وبالتالي جزء مكمّل للمكان. فقد تعامل الجاهلي، بعامة، مع المرأة ـ التمثال، أي المرأة التي يتصورها في خياله، فجاءت على شاكلة واحدة عند كل الجاهليين. لقد فَصّل ثوباً ألبسه كلَّ النساء، ولم يفصله على مقاس امرأة واحدة.

ـ **البيت التاسع**: عاد امرؤ القيس إلى حال التصعيد الشعوري بعد أن

سقط مجدداً في الواقع، ولم يعد سيّداً على الزمن. ويعني الدمع، ههنا، أننا نعجز عن التمثل الفعلي، فتستبدل الدمعَ به، كما يعني الجمع بين الدمع والصبابة تداخُلَ الواقع والأسى، وانحلال الحلم وتكسّره في صلابة الواقع وصفاقته. إنه الفشل المستمر في القبض على الزمن السيّال، الهارب، وما من مَعْزٍّ.

وتفيد المبالغة المنتشرة في هذا البيت براءة الذات التي تنظر إلى الوجود بقلب طفل؛ وتفيد، أيضاً، تصعيد العجز إلى حدّ يجعل الوجود مُرّاً، والذات منكسرة أمامه، تتحيّن الفرص لتقف وقفات تأكيد على نفسها بنفسها (الفروسية)، أو بالآخر (الحب ـ المرأة).

هكذا تكون النرجسية نوعاً من الحفاظ على الذات، في عالم يتهدّدها كل لحظة. وهكذا تكون الحسرة تنفيساً للذات عن غربتها الدائمة في عالم يفرغها من نفسها يوماً بعد يوم ليملأه بالنقصان والعدم، ولا مَرَدّ...

٢.٢ ـ قراءة من معلقة لبيد بن ربيعة

١.٢.٢ ـ التعريف بلبيد بن ربيعة (مات: ٦٦١ م):

هو أبو عقيل، لبيد بن ربيعة بن مالك العامري، من هوازن قيس. قتل والده وهو طفل، له بضع سنوات، فعاش في كنف أعمامه، ونعم بحياة رفاه، وسيادة، يُضيف ويُنجد، ورث كل هذا من والده ربيعة، على الأرجح، وكان رجلاً ذا سؤدد وكرم. وعُرف لبيد بفخره ووصفه وحكمه ذات الطابع الزهديّ.

عمّر طويلاً؛ وكان له أخ من أمه اسمه أربد، اتفق مع عامر بن الطفيل على الغدر بالنبي، ولكنهما فشلا، ومات عامر بداء الطاعون، ثم نزلت صاعقة على أربد فقتلته. وأسلم لبيد، وكفّ عن قول الشعر، وقيل

إنه عمّر حوالى مئة وأربعين سنة.

٢.٢.٢ ـ المعلقة ومناسبتها:

لم تكن لهذه المعلقة مناسبة خاصة، بل كان نظمها بدافع نفسي، عارضاً فيها أخلاقه ومآتيه، والحياة البدوية، ونفسية البدو. وهي تبدأ بوصف الأطلال، وذكر حبيبته نَوَار ورحيلها، ووصف الناقة عارضاً. بها لمصير إنساني مأسوي مفاده الصراع الأليم بين الحياة والموت، ولعل وصف الناقة هو من أهم أقسام المعلقة. ثم وصف نفسه وأحاسيسه، ولهوه وشربه وسرعة حصانه، وكرمه، ثم مدح قومه وفخر بهم. واللافت في معلقته هذه دقته في تحديد محالّ الحلول خلال السفر، حتى إن الزوزني قد قال فيه: «وقد أظهر في وصفه مقدرة نادرة نادرة في دقته وإسهابه والإحاطة بجميع صور الموصوف. وهو يتفوق على زملائه أصحاب المعلقات بإثارة تذكارات الديار القديمة وتحديد المحلّات في أثناء السفر حتى ليمكن دارس شعره أن يعيّن بالإستناد إلى بعض قصائده دليل رحلة من قلب بادية العرب إلى الخليج الفارسي[١]».

٣.٢.٢ ـ الوقوف على الأطلال في المعلّقة:

١ ـ عَفَتِ ٱلدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا
بِمِنىً تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا[٢]

---

(١) ليس من الضروري ان تكون للمعلقة مناسبة واحدة. في الواقع، ما من مناسبة واحدة لمعلقة لأنها مختلفة المواضيع، ولكن بعض مواضيعها تكون له، برأينا، مناسبة معينة.

(٢) الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص ١٢٤.

٢ ـ فَمَدَافِعُ ٱلرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا
خَلَقاً كَمَا ضَمِنَ ٱلوُحِيَّ سِلاَمُهَا[١]
٣ ـ دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنِيسِهَا
حِجَجٌ خَلَوْنَ، حَلاَلُهَا وَحَرَامُهَا[٢]
٤ ـ رُزِقَتْ مَرَابِيعَ ٱلنُّجُومِ وَصَابَهَا
وَدْقُ الرَوَاعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَامُهَا[٣]

---

(١) عفت: زالت آثارها، وعفا لازم ومتعدّ. يقال عَفَت الديارُ المنزلَ، وعفا المنزل ـ المحلّ: مكان حلول المرء في الدار ـ المُقَام: ما طالت فيه الإقامة ـ منى: جبل بحمى ضرية، غير الحَرَم. ويصح في هذه اللفظة أن تنصرف وأن تمنع من الصرف، كما تذكر وتؤنث ـ تأبّد: صار موحشاً، مقفراً ـ الغَوْل والرجام: جبلان.

يقول: امحت آثار ديار الأحبة وزالت، وزال ما كان منها للحلول. وكانت هذه الديار بمنى، فصارت موحشة، مقفرة. ويريد الشاعر ديارُ غولها وديار رجامها.

(٢) المدافع: ج. مدفع، وهي أماكن يندفع الماء عنها ـ الريّان: جبل معروف ـ الرسم: الأثر ـ خَلَقاً: بِلىً، وهي منصوبة على الحال هنا ـ الوُحِيّ: ج. وَحْي، أي كتابة ـ سِلامُها: ج. سَلِمَة، أي حجر.

يقول: أقفرت الديار لارتحال أهلها عنها، وصارت عارية لكثرة السيول التي عبرت عليها، وظهرت فيها الآثار كالكتابة المنقوشة على الحجر.

(٣) دِمَن: ج. دمنة، وهي أثر الدار ـ التجرّم: الانقطاع ـ العهد: اللقاء ـ الحجج: ج. حجة، أي سنة ـ الحلال والحرام: الأشهر الحلال والأشهر الحرام ـ خَلَوْنَ: مضين. والسنة تمضي لا تتعدى أشهر الحلّ والحرم، فذكرهما الشاعر معاً ليؤكد على تمام العام.

يقول: مضت على هذه الآثار، في تلك المواضع، أعوامٌ كاملة بعد أن هجرها أصحابها.

نشير هنا إلى أن بعض روايات البيت قد نصب لفظة «دمن» على الحال.

٥ ـ مِــن كُــلِّ سَــارِيَــةٍ وَغَــادٍ مُــدْجِــنٍ
وَعَشِيَّـــــةٍ مُتَجَــــاوِبٍ إِرْزَامُهَــــــا[١]

٦ ـ فَعَــلاَ فُــرُوعُ ٱلأَيْهَقَــانِ وَأَطْفَلَــتْ
بِــالْجَلْهَتَيْــنِ ظِبَــاؤُهَــا وَنَعَــامُهَــا[٢]

٧ ـ وَٱلعِيــنُ سَــاكِنَــةٌ عَلَــى أَطْــلاَئِهَــا
عُــوذاً تَــأَجَّــلُ بِــٱلفَضَــاءِ بِهَــامُهَــا[٣]

---

(١) المرابيع: ج. مِرباع، وهوالمطر الربيعي، ومرابيع النجوم هي المنازل التي تكون فيها الشمس في فصل الربيع ـ الصوب: الإصابة ـ الوَدْق: المطر؛ وودق الرواعد هو مطر الغيوم التي ترعد ـ الجود: المطر الشديد العامّ ـ الرهام (والرِهم): ج. رِهمة، وهي المطرة الليّنة.

يقول إن تلك الديار معشبة، أمطرت عليها الرعود، وترادفت عليها الأمطار. والدار المعشبة عبارة عن الدار الخالية هنا.

(٢) السارية: السحابة التي تمطر ليلاً ـ الغادي: الضحى ـ المدجن: الذي يلبس آفاق السماء ظلاماً لكثافته ـ الإرزام: تصويت الناقة بالحنين.

يقول إن تلك الأمطار هي سحابة من كل مطر، وهي مطر سحاب ضحويّ يتوزع آفاق السماء لتراكمه وكثافته فتتجاوب أصداؤه هنا وهناك كما يتجاوب حنين الناقة. وقد جمع أمطار السنة لأن معظم أمطار الشتاء يقع ليلاً، ومعظم أمطار الربيع يقع فجراً، ومعظم أمطار الصيف يقع عشيّاً.

(٣) الأيهقان: بفتح الهاء وضمها، هو الجرجيز البري، وهو ضرب من البقل، ينبت على الماء ويؤكل ـ أَطْفَلَت: صار لها أطفال ـ الجلهتان: حَدّا الوادي وطرفاه. وقد عطف النعام على الظباء مع أن النعام يبيض، وقد سوّغ النحاة مثل هذا العطف كوفيّيهم وبصرييهم.

يقول إن فروع الجرجير البري قد علت في هذا المكان، وولدت فيه الظباء والنعام وسكنته، وذلك ليفيد وحشة المكان.

٨ ـ وَجَلاَ ٱلسُّيُولُ عَنِ ٱلطُّلُولِ كَأَنَّهَا
زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقْلاَمُهَا[١]

٩ ـ أَوْ رَجْعُ وَاشِمَةٍ، أُسِفَّ نَؤُورُهَا
كِفَفاً، تَعَرَّضَ فَوْقَهُنَّ وِشَامُهَا[٢]

١٠ ـ فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا، وَكَيْفَ سُؤَالُنَا
صُمّاً خَوَالِدَ، مَا يَبِينُ كَلاَمُهَا[٣]

---

(١) العِين: ج. عيناء، وهي، في الأساس، صفة لجمال العين، ثم قيل العِين هي بقر الوحش التي يضرب بها المثل لجمال عينها ـ ساكنة: مطمئنة ـ الأطلاء: ج. الطَلاَ، وهو ولد بقر الوحش منذ ولادته وحتى يبلغ سنّه الشهرَ، ويمكن أن يستعار لولد الإنسان ـ العوذ: ج. عائذ، أي حديث النتاج ـ تأجَّل: تتأجّل، أي تسير أجلاً، والأجل هو قطيع بقر الوحش، والمقصود هنا تسير في قطعان ـ الفضاء: الصحراء ـ البهام (والبهم): ج. بهمة، وهو اولاد بقر الوحش إذا انفردت واختلطت بأولاد المعز.

يقول إن البقر الواسعة العيون قد سكنت هذا المكان، مع أولادها ترضعها وهي حديثه النتاج، وتصير أولادها قطيعاً في الصحراء.

(٢) جلا: كشف، وهنا بمعنى انزاح ـ زُبُر: ج. زبور، أي كتاب ـ تُجِدّ: تجدد ـ المتون: الكتابة والأسطر المتضمنة.

يقول أن السيول كشفت أطلال الديار، فإذا بها تظهر بعد أن سترها التراب، فكأن هذه الديار كتب تجدّ الأقلام كتابتها.

(٣) رَجْع: ترديد وتجديد ـ الواشمة: من تَشِم، أي تصنع الوشم ـ أسفّ: ذُرَّ ورُمِيَ. . النؤور: ما يتخذ من دخان السراج والنار لكي يصنع به الوشم ـ الكفف: ج. كفة، وهي الحلقة والدائرة ـ تَعَرَّض: أَعْرَضَ، أي ظهر ولاح ـ الوِشام: الوشم.

يقول كأن الأطلال ترديد واشمةٍ وشماً وقد ذرّت دخان السراج والنار وما تصنع به الوشم في دوائر وحلقات ليظهر فوقها الوشم، كما تزيل السيول التربة عن الأطلال فتظهرها.

١١ ـ عَرِيَتْ، وَكَانَ بِهَا ٱلجَمِيعُ، فَأَبْكَرُوا
مِنْهَـــا، وَغُـــودِرَ نُـــؤْيُهَـــا وَثُمَـــامُهَـــا(١)

٢.٣ ـ قراءة من معلّقة زهير بن أبي سلمى

٢.٣.١ ـ التعريف بزهير بن أبي سلمى (مات حوالى ٦٠٩ م):

هو زهير بن ربيعة، ولقبه أبو سُلمى. وقد رُوي أن أحداً من العرب لم يحمل اسم «سُلْمى» غير زهير. وهو من قبيلة مُزَيْنَة المضريّة، التي أقامت في بلاد غطفان بنجد. كان أبوه شاعراً، وكذلك خال أبيه بَشَامة بن الغدير، وزوج أمه أوس بن حجر (وهو صاحب المدرسة الأوسية)، واخته سَلْمى، وابناه كعب وبجير، وحفيده عقبة بن كعب (المضرّب بن كلب). يتم زهير باكراً، فتزوجت أمه من أوس، وكفل الشاعر أعمامه.

وشهد زهير حرب السباق (داحس والغبراء) بين عبس وذبيان، فتأثر بها كثيراً، ودار حولها كثيرُ شعره. وعندما أصلح الحارث بن عوف وهرم بن سنان بين القبيلتين، مدحهما كثيراً، وأشاد بعملهما.

وعمّر زهير حتى ناهز المئة من الأعوام، وكان في قومه مرشداً ومعلماً. وعرف بأنه صاحب «الحوليّات» أي القصائد التي كان يمضي في

---

(١) صُمّ: ج. أصمّ وصماء، أي صلبة والمقصود حجاراً صلبة ـ خوالد: ج. خالدة، أي باقية ـ يبين: يظهر، ومنه أبان أي أظهر، والبَيان أي الإظهار، ويمكن أن نقول هنا: يَبين ويُبين بفتح الباء وضمها.
يقول إنه وقف يسأل الديار الأطلال عن سكانها، ولكنْ كيف يسأل حجراً صلباً، باقياً، لا يمكن أن يجيب ؟!

إنجازها حولاً كاملاً، ويغلب عليها طابع الهدوء والتفكير والرصانة.

٢.٣.٢ ـ المعلقة ومناسبتها:

نظم زهير هذه المعلقة يمدح المصلحين هرماً والحارثَ محذّراً الفريقين من شر الخيانة والغدر، متوسعاً في وصف الحرب وويلاتها، وختم ببعض الحكم والخواطر التي كان فيها معلماً في بني قومه.

٣.٣.٢ ـ الوقوف على الأطلال في المعلقة:

١ ـ أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ
بِحَوْمَانَةِ ٱلدَّرَّاجِ فَٱلْمُتَثَلَّمِ(١)
٢ ـ وَدَارٌ لَهَا بِٱلرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا
مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ(٢)
بِهَا ٱلعِينُ وَٱلآرَامُ، يَمْشِينَ، خِلْفَةً،
وَأَطْلاَؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثِمِ(٣)

---

(١) أم أوفى: امرأة زهير ـ الدمنة: الأسود من آثار الدار من الرماد والبعر وغيره ـ حومانة الدرّاج والمتثلّم: اسم موضعين بنجد، والحومانة أيضاً القطعة من الرمل.
يقول إن الآثار الدائرة في منطقتي حومانة الدراج والمتثلم حيث كانت أم أوفى لم تجبه عندما خاطبها. والاستفهام هنا إنكاري. ومخاطبة الطلل تقليد جاهلي شائع. ويفيد الشك الانكاري ههنا بُعد عهد الدمنة، وعدم معرفة زهير إياها.

(٢) الرقمتين: مثنى رقمة، أي روضة. والرقمتان إحداهما قرب البصرة، والأخرى قرب المدينة ـ المراجيع: ج. مرجوع، وهو الرسم المجدَّد المردَّد ـ النواشر: ج. ناشر وناشرة، أي عرق باطن الذراع ـ المعصم: موضوع السوار من اليد.
يقول إن الدار التي لأم أوفى بين الروضتين تشبه النقش المكرر في عروق الذراع. وقد أراد بالرقمتين هنا أنها تحل عند الانتجاع في هذين الموضعين.

(٣) العِين: ج. عيناء، وهي في الأساس، صفة لجمال العين، ثم قيل العين هي بقر=

٤ ـ وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً
فَلأْياً عَرَفْتُ ٱلدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ[(١)]
٥ ـ أَثَافِيَّ سُعْفاً فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلِ
وَنُؤْياً كَجِذْمِ ٱلحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ[(٢)]
٦ ـ فَلَمَّا عَرَفْتُ ٱلدارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا:
أَلاَ ٱنْعَمْ صَبَاحاً أَيُّهَا ٱلرَّبْعُ وَٱسْلَمِ[(٣)]

= الوحش التي يضرب بها المثل لجمال عينيها ـ الآرام: ج. رئم، وهو الظبي الخالص البياض ـ خِلفةً يخلف بعضها بعضا ـ الأطلاء: ج. الطّلا، وهو كل صغير من ذوات الظلف ـ المجثم: مكان الجثوم، أي المربض. ويكون الجثوم للناس والطير والوحوش.

يقول تمر بهذه الدار قطعان بقر الوحش واحداً خلف واحد، وينهض من أنحاء هذه الأطلال صغار ذوات الظلف. وهذا للدلالة على وحشة المكان.

(١) حجة: سنة ـ لأي: جهد ومشقّة. وقد نصبه الشاعر على الحال ـ التوهُّم: تدقيق النظر والتأمُّل.

يقول إنه وقف بهذه الدار بعد عشرين سنة، فلم يعرف الدار إلا بصعوبة بعد أن نظر إليها مَلِيّاً.

(٢) الأثافيّ: ج. أثفيّة (تضعّف الياء وتخفّف)، وهي الحجارة التي توضع عليها القدر ليوقد تحتها نصب الأثافي على أنها بدل من الدار في البيت السابق ـ السّعف: ج. أسْعَف، أي أسود تشوبه حمرة ـ المعرّس: المنزل، أو المكان الذي ينزل به المسافر ليلاً، وقد استعير هنا للمرجل ـ المِرْجل: القِدْر ـ النؤي: مجرى صغير يحفر حول الخيمة أو البيت لمنع تسرّب الماء أو لصبّ الماء إليه، ويجمع على أنْآء وآناء ونُؤِيّ ونِئِيّ ـ جذم: أصل، حرف ـ يتثلّم: يتهدم وتزول آثاره

يقول إن الدار لم يبق منها غير هذه الأثافيّ السود، ونؤي كحرف الحوض الذي لم تمّحِ آثاره.

(٣) الرَّبع: موضع الدار حيث يُقام ـ انعم صباحاً: طاب عيشك في صباحك، وهو ما تقول العرب في تحيتها، بفتح العين وكسرها، ويقولون أيضاً عِمْ وعَمْ صباحاً، بكسر العين وفتحها، فلهم في هذا أربع لغات.

=

٤.٢ ـ قراءة من معلّقة عنترة بن شدّاد

٤.٢. ١ ـ التعريف بعنترة بن شداد (٥٢٥ ـ ٦١٥ م):

هو أبو المُغَلّس، عنترة بن شداد بن عمرو بن قراد العبسي. أمه زبيبة حبشية، سوداء البشرة، لذلك جاءت بشرته سوداء، فاستعبده أبوه على عادة العرب في استعباد أبنائهم الذين تكون بشرتهم سوداء، وعُدّ من الغربان، ولم يُلحقه أبوه بنسبه، وصرفه إلى رعاية الإبل والغنم، فعانى عنترة احتقار القوم. وكان مشقوق الشفة، فكانوا يقولون له: «عنترة الفلحاء».

وسنحت الظروف لعنترة فأعتق، واعترف به أبوه. ومفاد ذلك أن بعض العرب أغاروا على بني عبس واستاقوا إبلا لهم، فتبعهم العبسيون وقاتلوهم، وعنترة معهم يومذاك. فقال له أبوه: «كرّ يا عنترة». فقال: «العبد لا يحسن الكرّ، وإنما يحسن الحِلاب والصرّ». فقال: «كُرَّ، وأنت حُرّ!». فكر، وقاتل قتالاً جيداً، فألحقه أبوه بنسبه، وصار فارساً معروفاً، ذا بأس، من فرسان العرب.

وكان عنترة يحب ابنة عمه عبلة بنت مالك بن قراد العبسي، ولكن عمه كان يتهرّب من تزويجها له. ومع أن بعضهم يزعم أن زواج عنترة وعبلة قد تم في النهاية، إلا أننا لا نقع في شعر عنترة على شيء من هذا.

وقتل عنترة في غارة على بني نبهان، قتله وِزر بن جابر النبهاني، وكان في فتوّة.

= يقول إنه، بعد أن عرف الدار، دعا لربعها بالسلامة وعدم الزوال والتغيّر.

٢ . ٤ . ٢ ـ المعلقة ومناسبتها:

قيل إن عنترة كان في مجلس ذات يوم، وقد أحسن البلاء في الحرب، فعيّره أحد العبسيين في سواده وسواد أمه واخوته، وفي أنه عاجز عن قول الشعر، فشاتمه عنترة، وفخر عليه، وقال المعلقة. وفيها يذكر حبيبته عبلة وبُعد دارها وأطلالها، ويصف ناقته، ويذكر عدله وبأسه، وشربه الخمر، وكرمه وشرفه، ويصف بطشه، ويصور فرسه. وقد سمّى العرب معلقته هذه «الذهبيّة» لجودتها.

وتروى في هذه المعلقة رواية تفوح منها رائحة الأساطير؛ مفادها أن عنترة ورد الماء في حيّه ذات يوم، فلم يجد فيه أحداً، فأخرج سلاحه وتبع القوم الذين سَبَوا أهله فهاجمهم وقتل منهم ثمانية وطلب أن يردوا أباه وأمه فردوهما. فسأله عمه المساعدة، ووعده بتزويجه ابنته عبلة إن ساعده، فهاجم عنترة مجدداً، وقتل عشرة ثم طلب عمه وابنته فردوهما عليه. ثم طلب جيرانه، فأبوا ردّهم، فضرب عنترة من جديد فقتل وجرح أربعين، فردوا عليه جيرانه، فأنشد هذه القصيدة.

٣ . ٤ . ٢ ـ الوقوف على الأطلال في المعلّقة:

١ ـ هَـلْ غَـادَرَ ٱلشُعَـرَاءُ مِـنْ مُتَـرَدَّمِ
أَمْ هَـلْ عَـرَفْـتَ ٱلـدَّارَ بَعْـدَ تَـوَهُّـمِ ؟(١)

---

(١) المتردّم: الموضع الذي يُرَمَّم ويُسْتَصْلَح بعد أن يعتريه الوهن. وهو أيضاً ترديد الصوت مشوباً بالحزن؛ والشاعر يريد، على الأرجح، المعنى الأول.
يقول: هل ترك الشعراء مكاناً واهناً لم يرقعوه ويصلحوه، وأَمْ هنا بمعنى بل للإضراب. أما الاستفهام هنا فإنكاري، يفيد النفي. فالشاعر يريد أنهم لم يغادروا المتردم، ولم يتركوا معنى إلا صاغوا فيه شعراً وهذا مفاد قول بعضهم إن=

٢ ـ يَــا دَارَ عَبْلَــةَ بِــالْجَــوَاءِ، تَكَلَّمِــي
وَعِمِــي صَبَــاحــاً، دَارَ عَبْلَــةَ، وَاسْلَمِــي[١]

٣ ـ فَــوَقَفْــتُ فِيهَــا نَــاقَتِــي وَكَــأَنَّهَــا
فَــدَنٌ، لِأَقْضِــيَ حَــاجَــةَ الْمُتَلَــوِّمِ[٢]

٤ ـ وَتَحُــلُّ عَبْلَــةُ بِــالْجَــوَاءِ، وَأَهْلُنَــا
بِــالْحَــزْنِ، فَــالصَّمَّــانِ، فَــالْمُتَثَلَّــمِ[٣]

٥ ـ حُيِّيــتَ مِــنْ طَلَــلٍ تَقَــادَمَ عَهْــدُهُ
أَقْــوَى وَأَقْفَــرَ بَعْــدَ أُمِّ الْهَيْثَــمِ[٤]

= باب اختراع المعاني قد أغلق.

(١) الجواء: ج. جوّ، أي وادٍ. والجواء في البيت مكان ـ عمي صباحاً: طاب عيشك في صباحك.

يقول: تكلمي يا دار عبلة وأخبريني بما جرى. ويدعو لها بالصباح الطيب وعدم التغير. ومخاطبة الدار والطلل عادة درج عليها العرب.

(٢) الفدن: القصر ـ المتلوّم: من يقيم فترة من الزمن.

يقول إنه حبس ناقته وأوقفها بتلك الدار يستعيد الذكرى، فإذا ناقته كالقصر صخامة. ويريد بحاجته هنا البكاء على أيام الوصال.

نشير إلى أن هذا الاستطراد إلى وصف الناقة سنّة تقليدية، ما يدفع إلى الاعتقاد بأن القصيدة الجاهلية قد صارت إلى عنترة، وغيره ولها عمودها ونظامها.

(٣) تحلّ: تنزل ـ الحَزْن والصمّان والمتثلّم: اسماء مواضع.

يقول إن عبلة تقيم في الجواء في حين أن أهله يقيمون في مواضع أخرى هي الحزن والصمّان والمتثلم، أي أن كل واحد منهما قد صار في مكان بعيد جداً عن الآخر. وهنا نشير إلى أن مالكاً عم عنترة وأبا عبلى كان يبعد ابنته باستمرار عن عنترة متهرباً من وعده له بأن يزوّجه منها. وربما كان هذا هو سبب البعد الذي يذكره شاعرنا.

(٤) أقوى: أقفر، خلا. والمصدر الإقواء. وقد جمع أقوى وأقفر في البيت بهدف التوكيد على خلو المكان ووحشته ـ أم الهيثم: لقب عبلة.

=

٥.٢ ـ متفرقات طللية من الشعر الجاهلي:

١ ـ عَبيد بن الأبرص (مات نحو ٦٠٠ م):

١ ـ لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدَّفِينِ بِبَالِ،
فَلِوَى ذَرْوَةٍ فَجَنْبَيْ أُثَالِ[١]

٢ ـ فَٱلمَرُورَاةُ فَٱلصَّحِيفَةُ قَفْرٌ،
كُلُّ وَادٍ وَرَوْطَةٍ مِحْلاَلِ[٢]

٣ ـ دَارُ حَيٍّ أَصَابَهُمْ سَالِفُ ٱلـ
ـدَهْرِ فَأَضْحَتْ دِيَارُهُمْ كَٱلخِلاَلِ[٣]

٤ ـ مُقْفَرَاتٍ إلاَّ رَمَاداً غَبِيّاً
وَبَقَايَا مِنْ دِمْنَةِ ٱلأَطْلاَلِ[٤]

= يقول حُيّيت أيها المكان البالي الذي تحوّل إلى قفر بعد أن رحلت منه أم الهيثم.

(١) الرسم: بقية أثر الدار ـ الدفين: ما دُفن ـ بالٍ: رثّ ـ اللوى: الرمل الدقيق، ولوى ذروة: اسم مكان ـ الأُثال: اسم مكان.
يقول إن الرسم الرث لن يبلى، وإن لِوى ذورة وطرفي أُثال... وهذا البيت مرتبط عطفاً بالبيت التالي.

(٢) المروراة والصحيفة: اسما مكان ـ محلال: أرض يحل بها الناس.
يقول إن ما سبق ذكره من الأماكن والمروراة والصحيفة كلها صارت مقفرة، موحشة، وكذلك كل واد وروضة كان يحل بها الناس. وهذا البيت أيضاً مرتبط بما بعده.

(٣) سالف الدهر: صروف الدهر ـ الخلال: ج. الخِلّة، وهي بطانة لجفن السيف.
يقول إن كل واد وروضة ديارُ أحياء عرفت صروف الدهر فصارت كأنها بطانة أجفان سيف.

(٤) غبيّا: مستوراً ـ الدمنة: السّرقين، أي الزبل.
يقول إن كل شيء قد درس وزال إلا الرماد المستور، وبعض الزبل =

٥ ـ وَأَوَارِيَّ قَــدْ عَفَــوْنَ وَنُــؤْيــاً
وَرُسُــومــاً عُــرِّيــنَ مُــذْ أَحْــوَالِ(١)
٦ ـ بُــدِّلَــتْ مِنْهُــمُ ٱلــدِّيَــارُ نَعَــامــاً
خَــاضِبَــاتٍ، يُــزْجِيــنَ خَيْــطَ ٱلــرِئَــالِ(٢)
٧ ـ وَظِبَــاءً كَــأَنَّهُــنَّ أَبَــارِيــ
ــقُ لُجَيْــنٍ، تَحْنُــو عَلَــى ٱلأَطْفَــالِ(٣)

٢ ـ طرفة بن العبد (٥٣٨ ـ ٥٦٤ م):

١ ـ لِخَــوْلَــةَ أَطْــلَالٌ بِبُــرْقَــةِ ثَهْمَــدِ
تَلُــوحُ كَبَــاقِــي ٱلــوَشْــمِ فِــي ظَــاهِــرِ ٱلْيَــدِ(٤)

= والأطلال.

(١) الأواري: حبل لربط الدواب ـ النؤي: ما يحفر حول الخيمة أو البيت لجر الماء ـ أحوال: سنون.
يقول إن هذه الأطلال كانت مرابط دوابّ عفت، وفيها النؤي، والرسوم الباقية.

(٢) خاضبات: اللواتي أكلن الربيعَ فاحمّرت سوقهنّ ـ يزجين: يَسُقْنَ، يَقُدْنَ ـ الخيط: الجماعة ـ الرئال: ج. رأل، وهو ولد النعام.
يقول إن النعام قد أمّت هذا الديار الدارسة، محمّرة السوق، يسقن أولادهن. ويريد أن أن يصور وحشة الديار وإقفارها.

(٣) لجين: فضة.
يقول وظباء أيضاً (أي قطعان ظباء مع قطعان النعام) تشبه أباريق الفضة وهي تحنو على أطفالها. ومن المعروف أن الغزلان لا تقيم الا في أكثر الأماكن وحشة.

(٤) خولة: اسم امرأة كلبية ـ البرقة: المكان الذي يختلط ترابه بالحجارة والحصى ـ ثهمد: اسم مكان ـ تلوح: تلمع.

=

٢ ـ وُقُـوفـاً بِهَـا صَحْبِـي عَلَـيَّ مَطِيَّهُـمْ
يَقُـولُـونَ: لاَ تَهْلَـكْ أَسـىً وَتَجَلَّـدِ[١]

٣ ـ النابغة الذبياني (مات عام ٦٠٢ ؟):

١ ـ يَـا دَارَ مَيَّـةَ بِـٱلعَلْيَـاءِ، فَـٱلسَّنَـدِ،
أَقْـوَتْ، وَطَـالَ عَلَيْهَـا سَـالِـفُ ٱلأَبَـدِ[٢]
٢ ـ وَقَفْـتُ فِيهَـا أُصَيْـلاَنـاً أُسَـائِلُهَـا،
عَيَّـتْ جَـوَاباً، وَمَـا بِـٱلـرَبْـعِ مِـنْ أَحَـدِ[٣]

= يقول إن لخولة اطلالاً في الموضع الذي تخالط أرضه الحجارة والحصى بثهمد. وتلمع هذه الأطلال كأنها وشم في ظاهر اليد.

(١) وقوفاً منصوبة على الحال، فكأنه يقول قفا نبك في حال وقف أصحابي مطيّهم عليّ ـ المطيّ: ج. مطية أي المراكب التي يركب مطاها، أي ظهرها، وقيل إنها مشتقة من المطو، وهو طول السير والمدّ فيه ـ أسىً: حزناً، وقد نصبت لأنها مفعول لأجله ـ تجلّد: اصبر.

يقول إن أصحابه قد أوقفوا من أجله مطاياهم، وراحوا ينصحونه بالصبر، ويقولون له لا تمت من شدة الحزن. والمبالغة هنا واضحة. وهذا البيت مماثل لبيت امرىء القيس في المعلقة.

(٢) مية: اسم امرأة ـ العلياء: الأرض المرتفعة ـ السَنَد: ما علا من السفح. وهنا العلياء والسند موضعان ـ أقوت: أقفرت ـ السالف: الماضي ـ الأبد: الدهر.

يقول يا دار مية في ذلك المرتفع حيث يقابلها الجبل والسفح، وقد صرت خالية وطال الزمان على خلوّك.

(٣) الأصيلان: تصغير أصلان. ج. أصيل، أي عشيّ ـ عيّت: عجزت ـ الربع: المنزل، والمكان الذي نحلّ فيه.

يقول إنه وقف بدار مية عند الأصيل يخاطبها، ولكنها لا تجيب، وقد أقفرت وخلت من ساكنيها.

٣ ـ إِلاَّ ٱلْأَوَارِيَّ لأْيــــاً مَـــا أُبَيِّنُهَـــــا،
وَٱلنُّـؤْيَ كَـٱلحَـوْضِ بِـٱلمَظْلُـومَـةِ ٱلجَلَـدِ[١]

٤ ـ رَدَّت عَلَيْــــهِ أَقَــاصِيـــهِ، وَلَبَّـــدَهُ
ضَــرْبُ ٱلْـوَلِيـدَةِ بِـٱلمِسْحَـاةِ فِـي ٱلثَّـأَدِ[٢]

٥ ـ خَلَّــتْ سَبِيــلَ أَتِــيٍّ كَــانَ يَحْبِسُــهُ،
وَرَفَّعَتْــهُ إِلَــى ٱلسَّجْفَيْــنِ، فَــٱلنَضَــدِ[٣]

٦ ـ أَمْسَــتْ خَـلاَءً، وَأَمْسَـى أَهْلُهَـا ٱحْتَمَلُـوا
أَخْنَــى عَلَيْهَــا ٱلَّــذِي أَخْنَــى عَلَــى لُبَـدِ[٤]

---

(١) الأوريّ: ج. آري: عود يربط به حبل يدفن طرفاه في الأرض، ويبرز طرفه كالحلقة لكي تشد به الدابة ـ اللأي: الجهد، التعب ـ النؤي: حفرة حول البيت تجر إليها المياه ـ المظلومة: الأرض التي حفر فيها حوض، فكان في غير موضعه ـ الجلد: الأرض القاسية.

يقول إن آثار تلك الدار لم تعد ظاهرة إلا الأواريّ التي تظهر بجهد، والحفرة التي شبهها بالحوض في أرض صلبة.

(٢) أقاصيه: أطرافه ـ لبّده: ألصق ترابه بعضه ببعض ـ الوليدة: الخادمة الشابة ـ المِسحاة: آلة تشبه المجرفة ـ الثأد: البلل والندى.

يقول إن الجارية قد ردّت التراب المتفرّق في هذه الحفرة عند أطرافه كيلا يصل الماء إلى الخيمة، ولبّدته بعد أن ضربته بالمسحاة وهو رطب.

(٣) الآتيّ: سيل يحدث فجأة ـ السجفان: ستران رقيقان يكونان في مقدم البيت، والمفرد سجف ـ النضد: متاع البيت.

يقول إن الجارية، عندما أصلحت النؤي، جعلت فيه سبيلا للسيل، فرفعت من مجراه كل ما كان يحبسه، ثم رفعت جانب النؤي، حتى بلغت به السجفين.

(٤) احتملوا: رحلوا مع أحمالهم ـ أخنى عليها: غيّرها وأفسدها ـ لُبَد: نسر لِلُقْمَان بن عاد عمّر كثيراً. والمراد بالذي أخنى على لبد الدهر.

يقول إن الدار قد أصبحت خالية، وهجرها أهلها، فكأن الدهر أفسدها وغيّرها كما أفنى نسر لقمان. وفي هذا إشارة إلى قوة فعل الدهر.

٤ ـ أوس بن حجر (٥٣٠ ـ ٦٢٠ م):

١ ـ تَنَكَّـرَ بَعْـدِي مِـنْ أُمَيْمَـةَ صَـائِـفُ،
فَبِـرْكٌ، فَـأَعْلَـى تَـوْلَـبٍ، فَـالْمَخَـالِـفُ(١)

٢ ـ فَقَـوٌّ، فَـرَهْبَـى، فَـالسَلِيـلُ، فَعَـاذِبٌ،
مَطَـافِيـلُ عُـوذِ الـوَحْـشِ فِيـهِ عَـوَاطِـفُ(٢)

٣ ـ فَبَطْـنُ السُلَـيِّ، فَـالسِخَـالُ تَعَـذَّرَتْ
فَمَعْقُلَـةٌ إِلَـى مُطَـارٍ، فَـوَاحِـفُ(٣)

٤ ـ كَـأَنَّ جَـدِيـدَ الـدَارِ يُبْلِيـكَ عَنْهُـمُ،
تَقِـيُّ اليَمِيـنِ، بَعْـدَ عَهْـدِكَ حَـالِـفُ(٤)

٥ ـ بِهَـا العِيـنُ وَالآرَامُ تَـرْعَـى سِخَـالَهَـا،
فَطِيـمٌ وَدَانٍ لِلْفِطَـامِ وَنَـاصِـفُ(٥)

---

(١) تنكّر: تغيّر ـ صائف وبِرك وتولب والمخالف: أسماء أماكن.
يقول إن صائف أميمة وبرك وتولب والمخالف كلها قد تغيّر من بعده وهذا البيت يستمر معناه في البيت اللاحق.

(٢) قوّ ورهبى والسليل والعاذب: أسماء وديان أو أمكنة في ديار بني تميم وبني عامر ـ العوذ المطافيل: الإبل التي ولدت وصارت أولادها تتبعها ـ عواطف: حانية على أولادها.
يقول إن هذه المواضع أقفرت كلها وصارت ترتع فيها الإبل التي تتبعها أولادها (للدلالة على وحشتها).

(٣) بطن السليّ، والسخال والمعقلة ومطار وواحف: أسماء مواضع.
يعدد لنا الشاعر هنا أسماء المواضع على عادة العرب في ذكر الأمكنة.

(٤) يقول إن جديد الدار يحلف لك يميناً فيها صدق أن أحداً لم يحلّ بها، والدليل معالمها الزائلة.

(٥) العين: ج. عَيْناء، وهي صفة للعين الجميلة، ثم قيل هي بقر الوحش يضرب بها المثل في العين الجميلة ـ الآرام: ج. رئم، أي ظبي ـ سخالها: ج. سخل، وهو=

٥ ـ الأعشى [الأعشى الأكبر/ أعشى قيس] (مات حوالى ٦٢٩ م):

١ ـ مَـا بُكَـاءُ ٱلكَبِيـرِ بِـٱلأَطْـلَالِ،
وَسُـؤَالِـي، فَهَـلْ تَـرُدُّ سُـؤَالِـي؟[١]

٢ ـ دِمْنَـةٌ قَفْـرَةٌ، تَعَـاوَرَهَـا ٱلصَيْـ
ـفُ بِـرِيحَيْـنِ: مِـنْ صَبـاً وَشَمَـالِ[٢]

٣ ـ لَاتَ هَنَّـا ذِكْـرَى جُبَيْـرَةَ، أَوْ مَـنْ
جَـاءَ مِنْهَـا بِطَـائِـفِ ٱلأَهْـوَالِ[٣]

٤ ـ حَـلَّ أَهْلِـي بَطْـنَ ٱلخَمِيـسِ فَبَـادَوْلَـ
ـى، وَحَلَّـتْ عُلْـوِيَّـةً بِـٱلسِخَـالِ[٤]

= ولد الظبي، أو الظبي الصغير ـ الناصف: الولد القريب من الفطام.

يقول إن هذه الدار قد صارت، بعد أن رحل عنها أهلها مرعى لبقر الوحش، وإن الظباء ترعى فيها مع أولادها. وهذه صورة لخلو الدار ووحشتها.

(١) يقول: لماذا يقف الرجل الكبير على الأطلال ولا جدوى من بكائه وتساؤله لأنها لن ترد سؤاله.

(٢) الدمنة: أثر الناس ـ تعاور: تداوَلَ ـ الصَبَا والشمال: ريحان، الصبا منهما حفيفة، والشمال باردة.

يقول إن الريح قد عبثت بهذه الأطلال من كل جهة، شمالها وصَبَاها، فلم يعد يعرف من سكنها.

(٣) لاتَ: ليس. حرف نفي مشبه بليس باطل عمله ـ هَنّا: هاهنا ـ جُبَيْرَة: اسم امرأة ـ طائف: خيال.

يقول: ليس هنا مقام جبيرة، أو محل طيفها الذي يطرق الأهوال.

(٤) بطن الخميس وبادولى والسخال: اسماء أماكن ـ علوية: في العالية.

يقول إن التباعد قد حلّ بينه وبين جبيرة لأن أهلها قد نزلوا مكاناً بعيداً عن المكان الذي ينزل فيه أهله.

٥ ـ تَـرْتَعِـي ٱلسَفْـحَ فَـٱلكَثِيـبَ، فَـذَاقَـ
ـــارِ، فَـرَوْضَ ٱلقَطَـا، فَـذَاتَ ٱلـرِئَـالِ(١)

٦ ـ المُرَقِّش الأصغر (مات نحو ٥٧٢ م):

١ ـ لاِبْنَـــةِ عَجْـــلاَنَ بِـــٱلْجَـــوِّ رُسُـــومْ
لَـــمْ يَتَعَفَّيْـــنَ، وَٱلعَهْـــدُ قَـــدِيـــمْ(٢)

٢ ـ لاِبْنَـــةِ عَجْـــلاَنَ إِذْ نَحْـــنُ مَعـــاً
وَأَيُّ حَـــالٍ مِـــنَ ٱلـــدَهْـــرِ تَـــدُومْ!(٣)

٣ ـ أَمِـــنْ دِيَـــارٍ تَعَفَّـــى رَسْمُهَـــا
عَيْنُـــكَ مِـــنْ رَسْمِهَـــا بِسَجُـــومْ ؟(٤)

---

(١) ترتعي: تقصد، ترود للرعي ـ السفح والكثيب وذوقار: اسماء مراعٍ ـ روض القَطَا: اسم مرعى يكثر فيه القطا، والقطا ج. قَطَاة وهي طائر بحجم الحمام ـ ذات الرئال: أرض الرئال، والرئال ج. رأل وهو صغير النعامة. والمقصود هنا النعامة نفسها.

يقول هنا إنها ـ أي قبيلتها ـ تقصد السفح وأماكن الرعي الأخرى.

(٢) الجوّ: اسم مكان ـ يتعفّين: يَزُلْنَ.

يقول إن المواضع التي كانت فيها ابنة عجلان قد صارت بقايا ظاهرة على الرغم من تقادم العهد.

(٣) يقول إن تلك المواضع لابنة عجلان كانت تقيم فيها حين كنا معاً، ولكن الدهر لا يُبقي على حال.

(٤) تَعَفَّى: امّحى، زال ـ سَجوم: كثيرة الدمع.

يقول متسائلاً أمن هذه الأطلال والديار البائدة تبكي وتنهمر الدموع من عينك ؟

نشير هنا إلى أن عجز البيت فيه مخالفة للوزن إذ جاء على «مُفتعلن فاعلن فَعِلاَنْ»، ويجب أن تكون التفعيلة الثالثة على مُسْتَفْعِلاَنْ أو أحد جوازاتها.

٤ ـ أَضْحَتْ قِفَاراً، وَقَدْ كَانَ بِهَا،

فِي سَالِفَ ٱلدَّهْرِ، أَرْبَابُ ٱلهُجُومْ(١)

٥ ـ بَادُوا، وَأَصْبَحْتُ مِنْ بَعْدِهِمِ

أَحْسَبُنِي خَالِداً، وَلاَ أَرِيمْ(٢)

٧ ـ الحارث بن حِلِّزَة (مات نحو ٥٧٢ م) [وهو من أصحاب المعلقات]:

١ ـ لِمَنِ ٱلدِّيَارُ عَفَوْنَ بِٱلحُبْسِ

آيَاتُهَا كَمَهَارِقِ ٱلفُرْسِ(٣)

٢ ـ لاَ شَيْءَ فِيهَا غَيْرُ أَصْوِرَةٍ

سُفْعِ ٱلخُدُودِ، يَلُحْنَ كَٱلشَّمْسِ(٤)

---

(١) الهُجُوم: ج. هجمة وهي جزء من الإبل، أي بعضها.
يقول أصبحت هذه الديار مقفرة بعد أن كان يسكنها أصحاب الإبل.

(٢) بادوا: زالوا ـ لا أريم: لا أزول، لا أبرح. ويقال رام يَريم إذا زال من موضعه، ويستعمل هذه الفعل مع النفي.
يقول إن من كان في هذه الديار قد باد، وقد صرت من بعدهم أحسب نفسي خالداً.

(٣) عَفَوْنَ: زلْنَ ـ الحبس: اسم مكان ـ آياتها: ج. آية، أي عَلَم ـ مهارق: ج. مَهْرَق وهو الصحيفة.
يقول لمن الديار الزائلة في موضع الحبس تظهر كأنها صحيفة من صحائف الفُرس؟

(٤) الأصورة: ج. صوار، وهو قطيع المها، أو بقر الوحش ـ سُفع: سُود ـ يَلُحْنَ: يظهرن.
يقول لا شيء في هذه الديار سوى قطان بقر الوحش سوداء الخدود في ضوء الشمس.

٣ ـ أَوْ غَيْــرُ آثَــارِ ٱلجِيَــادِ بِــأَعْـ
ـــرَاضِ ٱلجَمَــادِ، وَآيَــةِ ٱلــدَّعْــسِ(١)
٤ ـ فَحَبَسْـتُ فِيهَـا ٱلـرَّكْـبَ أَحْـدِسُ فِـي
كُــلِّ ٱلأُمُــورِ، وَكُنْــتُ ذَا حَــدْسِ(٢)

٨ ـ بِشْر بن أبي خازم (مات حوالي ٥٩٠ م):

١ ـ غَشِيــتَ لِلَيْلَــى بِشَــرْقٍ مُقَــامَــا،
فَهَــاجَ لَــكَ ٱلـرَسْـمُ مِنْهَــا سَقَــامَــا(٣)
٢ ـ بِسِقْــطِ ٱلكَثِيــبِ، إِلَــى عَسْعَــسٍ،
تَخَــالُ مَنَــازِلَ لَيْلَــى وِشَــامَــا(٤)

---

(١) أعراض: ج. عُرْض، أي ناحية ـ الجماد: ج. جمد، وهو الرمل الغليظ ـ آية الدعس: آثاره.
يقول لا يوجد هنا سوى آثار حوافر الجياد على الرمل.

(٢) أحدس: أخمّن، والحدس هو الظن والتخمين ـ الركب: القافلة، أو المرافقون في الرحلة.
يقول إنه وقف في الديار مع من كان يرافقه في رحلته يفكر في الأمور، وكان ذا حدس لا يخطىء، ولعله يقصد أنه أغرق في التأمل.

(٣) غشيت: أتيت وحللت ـ شَرْق: بلد لبني أسد ـ مقام: مكان الإقامة ـ السقام: المرض، العِلّة.
يقول إنه قد اضطرب شوقه حتى كاد أن يصير كالمرض عندما قصد دار ليلى فوجدها أطلالاً.

(٤) سِقط: طرف ـ الكثيب: ما ارتفع من الرمل، وسقط الكثيب هو حيث يسقط إلى السهل ـ عسعس: اسم جبل ـ وِشام: ج. وشم، أي نَقْش في اليد أو الجسم.
يقول إن ما تبقى من منازل ليلى من طرف الكثيب إلى جبل عسعس يشبه الوشم.

٣ ـ تَجَـــرَّمَ مِـــنْ بَعْـــدِ عَهْـــدِي بِهَـــا،
سُنُـــونَ تُعَفِّيـــهِ، عَـــامـــاً فَعَـــامَـــا[١]
٤ ـ ذَكَـــرْتُ بِهَـــا ٱلحَـــيَّ، إِذْ هُـــمْ بِهَـــا
فَـــأَسْبَلَـــتِ ٱلعَيْـــنُ مِنِّـــي سِجَـــامَـــا[٢]
٥ ـ أُبَكِّـــــي بُكَـــــاءَ أَرَاكِيَّـــــةٍ
عَلَـــى فَـــرْعِ سَـــاقٍ تُنَـــادِي حَمَـــامَـــا[٣]

٩ ـ سَلاَمَة بن جَنْدَل (مات نحو ٥٨٩ م):

١ ـ هَـــاجَ ٱلمَنَـــازِلَ رِحْلَـــةُ ٱلمُشْتَـــاقِ
دِمَـــــنٌ وَآيَـــــاتٌ لَبِثْـــــنَ بَـــــوَاقِ[٤]
٢ ـ لَبِـسَ ٱلـرَوامِـسُ وَٱلجَـدِيـدُ بَـلاَهُمَـا
فَتُـــرِكْـــنَ مِثْـــلَ ٱلمُهْـــرَقِ ٱلأَخْـــلاَقِ[٥]

---

(١) تجرّم: انقضى ـ تعفّيه: تمحوه (والهاء للديار).
يقول إنّ سنين طويلة قد انقضت منذ كان مقيماً في تلك الديار، فمحت معالمها عاماً بعد عام، وأزالتها.

(٢) أسبلت: ذرفت، أنزلت ـ سِجام: دمع كثير.
يقول عندما ذكر أهل الدار فاضت عينه دموعاً.

(٣) أبكّي: أي أبكي، وقد ضوعف للمبالغة ـ أراكيّة: نوع من الحمام.
يقول إنه بكى بكاء حمامة على فرع شجرة تنادي بحزن نظيراتها من الحمام.

(٤) آيات: ج. آية، أي علامة ـ لبثن بواقٍ: مكثن ولم يزلْنَ.
يقول إن أطلال المنازل وعلاماتها الباقية التي لم تزَل قد حرّكت مشاعره.

(٥) الروامس: ج. رامس، وهي الرياح التي تحمل الرمل؛ وهي تسمى كذلك لأنها تدفن بالتراب المحمول كل شيء، أي ترمسه ـ الجديد: الدهر ـ المهرق: الصحيفة ـ الأخلاق: ج. خَلَق، أي بالٍ.

=

٣ ـ لِلْحَـــارِثِيَّـــةِ قَبْـــلَ أَنْ تَنْـــأَى ٱلنَّـــوَى
بِهِـــمُ، وَإِذْ هِـــيَ لاَ تُـــرِيـــدُ فِـــرَاقِـــي(١)

٤ ـ وَمَجَـــرَّ سَـــارِيَـــةٍ تَجُـــرُّ سُيُـــولَهَـــا
نَـــوْسَ ٱلنَّعَـــامِ، يُنَـــاطُ بِـــٱلأَعْنَـــاقِ(٢)

٥ ـ مِصْـــرِيَّـــةٌ نَكْبَـــاءُ، أَعْـــرَضَ شِيُمهَـــا
بِـــأَشَـــابَـــةٍ، فَـــزَرُودَ، فَـــٱلأَفْـــلاَقِ(٣)

٦ ـ هَتَكَـــتْ عَلَـــى عُـــوذِ ٱلنِعَـــاجِ بُيُـــوتَهَـــا
فَيَقَعْـــــنَ لِلـــــرُكَبَـــــاتِ وَٱلأَرْوَاقِ(٤)

= يقول إن الريح قد محت آثار الديار بالتراب الذي حملته إليها، فإذا بها كالصحيفة الرثة. ولعل في هذا دلالة على أن الكتابة قد عُرفت في العصر الجاهلي.

(١) تنأى: تبعد ـ النّوى: البعد والنيّة.
يقول إنّ هذه هي أطلال الحارثية، قبل أن تبعد بها النيّة وهي لا تريد مفارقتي.

(٢) مَجَرّ: مكان الجَرّ ـ سارية: سحابة ليلية ـ نوس: تَحَرُّك ـ يُناط: يعلق.
يقول إن السحابة الليلية تسحب ذيلها وتتحرك كالنعام الذي يُجَرّ بعنقه مربوطاً.

(٣) مصريّة: سحابة جاءت من جهة مصر ـ نكباء: انحرفت عن مهابّ الرياح القُوَّم، ووقعت بين ريحين ـ أعرض: هنا بمعنى نزل ـ شِيم: مطر ـ أشابه وزرود والأفلاق: أسماء أماكن.

(٤) هتكت: دخلت على ـ العوذ: ج. عائذ، أي حديث النتاج ـ الأوراق: ج. ورق، أي قرن.
يقول إنها ـ أي السحابة ـ دخلت على النعاج الحديثة الوَضْع، فرمتها إلى الركبات والقرون. وهو بهذا يصور شدة المطر.

٧ ـ فَتَرَى مَذَانِبَ كُلِّ مَدْفَعِ تَلْعَةٍ،
عَجِلَتْ سَوَاقِيهَا مِنَ ٱلإِتَّاقِ[١]

٨ ـ فَكَأَنَّ مَدْفَعَ سَيْلِ كُلِّ دَمِيثَةٍ
يُعْلَى بِذِي هُدْبٍ مِنَ ٱلأَعْلَاقِ[٢]

٩ ـ مِنْ نَسْجِ بُصْرَى وَٱلْمَدَائِنِ، نُشِّرَتْ
لِلْبَيْعِ، يَوْمَ تَحَضُّرِ ٱلأَسْوَاقِ[٣]

١٠ ـ فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي فَتَحَنَّنَتْ
لِهَوَى ٱلرَّوَاحِ، تَتُوقُ كُلَّ مَتَاقِ[٤]

---

(١) مذانب: ج. مذنب، وهو مجرى الماء إلى الرياض ـ المدفع: مجرى الماء ـ التلعة: مسيل مرتفع إلى بطن الوادي ـ عجلت: جاءت سريعاً بالماء ـ الإتاق: الامتلاء.

يقول إنك ترى مجاري المياه في كل مسيل إلى بطن الوادي وقد سرى فيها الماء سريعاً وامتلأت شديداً.

(٢) دميثة: أرض سهلة، لينة ـ هُدب: ج. هُدبة، أي خَمْل الثوب وطرّته ـ الأعلاق: متاع الرجل.

يقول كأن سيل الماء على الأرض السهلة متاع رجل... ولهذا البيت استمرار في البيت التالي.

(٣) بُصرى: قرية في بلاد الشام، ومن نسج بصرى، أي من صُنْعِها ـ نُشّرت: عُرضت.

يقول (مكملا المعنى الذي بدأ في البيت السابق) وقد عرض هذا المتاع الذي من نسج بصرى للبيع في يوم التسوّق.

(٤) تحنّنت: ارسلت صوتها بالحنين ـ الرواح: الرحيل ـ تتوق: تشتاق ـ متاق: مصدر ميمي من التَوق.

يقول إنه أوقف ناقته بتلك الأطلال، فإذا بها ترسل حنينها وتتوق إلى الرحيل.

١١ ـ حَتَّى إِذَا هِيَ لَمْ تُبِنْ لِمُسَائِلِ
وَسَعَتْ رِيَاحُ ٱلصَّيْفِ بِٱلأَصْيَاقِ[١]

١٢ ـ أَرْسَلْتُ هَوْجَاءَ ٱلنَّجَاءِ كَأَنَّهَا
إِنْ هَمَّ أَسْفَلُ حَشْوِهَا بِنِفَاقِ[٢]

١٠ ـ حاتم الطائي (مات حوالى ٦٠٥ م):

١ ـ أَتَعْرِفُ أَطْلَالاً، وَنُؤْياً مُهَدَّمَا،
كَخَطِّكَ، فِي رَقٍّ، كِتَاباً مُنَمْنَمَا؟[٣]

٢ ـ أَذَاعَتْ بِهِ ٱلأَرْوَاحُ، بَعْدَ أَنِيسِهَا،
شُهُوراً وَأَيَّاماً وَحَوْلاً مُجَرَّمَا[٤]

---

(١) مُسائل: مُتَسائل ـ الأصياق: ج. صيق، أي غبار.
يقول إن تلك الأطلال، وهي غير ظاهرة المعالم للسائل، قد تداولتها رياح الصيف، وملأتها غباراً...و

(٢) هوجاء: متزايدة النشاط ـ النجاء: السرعة ـ حشوها: وبرها ـ نفاق: ذهاب.
يقول (مكملا المعنى الذي بدأ في البيت السابق) إنه إطلق ناقته السريعة المتزايدة النشاط والسرعة، وركض بها على الطلل.

(٣) النؤي: مجرى صغير حول الخيمة أو البيت لمنع تسرّب الماء أو لصبّ الماء إليه ـ الرَق: الجلد الرقيق يكتب عليه.
يقول متسائلاً أتعرف هذه الأطلال ومجاري المياه المهدمة عندما تظهر كالخط المزخرف المنقوش على الجلد الرقيق؟

(٤) الأرواح: ج. ريح ـ المجرَّم: الكامل.
يقول إن الرياح لعبت فيه، وهي تشعر بالوحشة بعد أُنس، شهوراً وأيّاماً وسنين كاملة.

٣ ـ دَوَارِجَ، قَـدْ غَيَّـرْنَ ظَـاهِـرَ تُـرْبِـهِ،
وَغَيَّـرَتِ ٱلأَيَّـامُ مَـا كَـانَ مُعْلَمَـا[١]
٤ ـ وَغَيَّـرَهَـا طُـولُ ٱلتَقَـادُمِ وَٱلبِلَـى،
فَمَـا أَعْـرِفُ ٱلأَطْـلاَلَ إِلاَّ تَـوَهُّمَـا[٢]
٥ ـ دِيَـارُ ٱلَّتِـي قَـامَـتْ تِـرِيكَ، وَقَـدْ خَلَـتْ
وَأَقْـوَتْ مِـنَ ٱلـزُّوَّارِ، كَفّـاً وَمِعْصَمَـا[٣]

---

(١) دوارج: ج. دارِجة، أي ماشية.
يقول إن الرياح التي عبرت على الأطلال قد غيّرت معالمها وأزالت آثارها.
(٢) البلى: الزوال، الفناء.
يقول لكثرة ما غير القدم والفناء هذه الأطلال لم يعد يعرفها إلا في ظنه وتفكيره.
(٣) الضمير في خلت يعود إلى الديار ـ أَقْوَتْ: فرغت، أقفرت.
يقول هذه الديار البائدة كانت ديار الحبيبة البعيدة التي أرتك كفها ومعصمها.

المصادر والمراجع

١ ـ الكتب العربية:

١ ـ ابن الأثير: الكامل، دار الكتاب العربي، ط ٤، ١٩٨٣.

٢ ـ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، طبعة بولاق، لا تاريخ.

٣ ـ ابن خلدون: المقدمة، دار إحياء التراث العربي، ط ٤.

٤ ـ ابن سلّام: طبقات الشعراء، دار الفكر للجميع، لا تاريخ.

٥ ـ ابن عبد ربه: العقد الفريد، دار ومكتبة الهلال، لا تاريخ.

٦ ـ ابن قتيبة: أدب الكاتب، المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر، ط ٤، ١٩٦٣.

٧ ـ أدونيس: الثابت والمتحول، دار العودة، ط ١، ١٩٧٤.

٨ ـ أدونيس: مقدمة للشعر العربي، دار العودة، ط ١، ١٩٧١.

٩ ـ أدونيس: كلام البدايات، دار الآداب، ط ١، ١٩٨٩.

١٠ ـ اسماعيل، عز الدين: التفسير النفسي للأدب، دار العودة ودار الثقافة، لا تاريخ.

١١ ـ الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، دار صعب (عن طبعة بولاق)، لا تاريخ.

١٢ ـ أمين، أحمد: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي ط ١٠.

١٣ ـ أنيس، ابراهيم: اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، ١٩٧٠.

١٤ ـ البستاني، فؤاد افرام: الخنساء، سلسلة الروائع، ط٤ ، ١٩٦٥.

١٥ ـ التبريزي: شرح قصيدة كعب بن زهير، دار الكتاب الجديد، ط ١ ، ١٩٧١.

١٦ ـ الثعالبي، أبو منصور: فقه اللغة، دار مكتبة الحياة، ١٩٠٠.

١٧ ـ الجاحظ، أبو عثمان، : كتاب الحيوان، دار صعب، ط٢ ، ١٩٧٨.

١٨ ـ جحا، ميشال: خليل مطران، دار المسيرة، ط١ ، ١٩٨١.

١٩ ـ حاوي، إيليا، ومطاع صفدي: موسوعة الشعر العربي، اشراف: خليل حاوي، شركة خياط، ١٩٧٤.

٢٠ ـ حتّي، فيليب، وادوارد جرجي وجبرائيل جبور: تاريخ العرب (مطول)، دار الكشاف، ط ٤، ١٩٦٥.

٢١ ـ الحوت، محمود سليم: في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، ١٩٧٩.

٢٢ ـ خليف، يوسف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط ٣.

٢٣ ـ درويش، محمد طاهر: حسان بن ثابت، دار المعارف، لا تاريخ.

٢٤ ـ الرافعي: مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، ط٤ ، ١٩٧٤.

٢٥ ـ روميه، وهب: الرحلة في القصيدة الجاهلية، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ط ١، ١٩٧٥.

٢٦ ـ الزوزني، أبو عبدالله: شرح المعلقات السبع، دار الجيل ومكتبة المحتسب ـ عمان، ط٢ ، ١٩٧٢.

٢٧ ـ زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٦.

٢٨ ـ زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، ط٢ ، ١٩٧٨.

٢٩ ـ زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، تقديم: حسين مؤنس، دار الهلال، لا تاريخ.

٣٠ ـ سوسه، أحمد: العرب واليهود في التاريخ، دار العربي ـ دمشق، ط٤ ، ١٩٧٥.

٣١ ـ سوسه، أحمد: حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، وزارة الاعلام العراقية، السلسلة الإعلامية (رقم ٧٩)، ١٩٧٩.

٣٢ ـ السيوطي، جلال الدين: المزهر في اللغة وعلومها، دار إحياء الكتب العربية (طبعة الحلبي)، لا تاريخ.

٣٣ ـ الشهرستاني، أبو الفتح: الملل والنحل، دار المعرفة، ١٩٨٤.

٣٤ ـ شيخو، لويس: شعراء النصرانية قبل الإسلام، دار المشرق، ط٢ ، ١٩٦٧.

٣٥ ـ الصالح، صبحي: دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط٧ ، ١٩٧٨.

٣٦ ـ ضيف، شوقي: العصر الجاهلي، دار المعارف، ط ٨.

٣٧ ـ الطبري، أبو جعفر: تاريخ الأمم والملوك، دار القلم، لا تاريخ.

٣٨ ـ عطوان، حسين: مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، دار المعارف، ١٩٧٤.

٣٩ ـ عطوان، حسين: مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول، دار المعارف، ١٩٧٤.

٤٠ ـ العقاد، عباس محمود: مطلع النور، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٦٩.

٤١ ـ فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط ٣.

٤٢ ـ القرشي، حسن عبدالله: فارس بني عبس، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٩.

٤٣ ـ قميحة، مفيد: المعلقات العشر، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩١.

٤٤ ـ المسعودي، أبو الحسن: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، ط٣، ١٩٧٨.

٤٥ ـ معلوف، لويس: المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، المكتبة الشرقية، ط ٢٦.

٤٦ ـ المفضّل الضبّي: أمثال العرب، دار الرائد العربي، ط ١، ١٩٨١.

٤٧ ـ مكي، طاهر أحمد: مصادر الأدب، دار المعارف، ط ٤، ١٩٧٧.

٤٨ ـ الهاشمي، أحمد: جواهر الأدب، مؤسسة المعارف، لا تاريخ.

٤٩ ـ الهمذاني: صفة جزيرة العرب، طبعة ليدن، لا تاريخ.

٥٠ ـ اليازجي، كمال: في الشعر العربي القديم (النوازع الخلقية ـ مكارم الأخلاق ـ ٢)، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٧٣.

٥١ ـ اليازجي، كمال: في الشعر العربي القديم (الخلقية ـ مكارم الأخلاق ـ ٣)، دار الكتاب اللبناني، ط١ ، ١٩٧٣.

٥٢ ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، ١٩٧٧.

٥٣ ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، لا تاريخ.

٥٤ ـ اليوسف، يوسف: مقالات في الشعر الجاهلي، دار الحقائق، ط٢ ، ١٩٨٠.

٢ ـ الدواوين الشعرية:

١ ـ الأخطل التغلبي: ديوان الأخطل، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٨٦.

٢ ـ امرؤ القيس: ديوان امرىء القيس، دار بيروت، ١٩٨٦.

٣ ـ تميم بن مقبل: ديوان تميم بن مقبل، تحقيق: عزة حسن، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق، ١٩٦٢.

٤ ـ حاتم الطائي: ديوان حاتم الطائي، دار بيروت، ١٩٨٦.

٥ ـ الخنساء: ديوان الخنساء، دار الأندلس، ط٦ ، ١٩٦٩.

٦ ـ الشنفرى: ديوان الشنفرى، دار الكتاب العربي، ط١ ، ١٩٩١.

٧ ـ طرفة بن العبد: ديوان طرفة بن العبد، دار بيروت، ١٩٧٩.

٨ ـ عروة بن الورد، والسموأل: ديوانا عروة بن الورد والسموأل، دار صادر، لا تاريخ.

٩ ـ عنترة بن شداد: ديوان عنترة، دار صادر، ط٢ ، ١٩٩٢ .

١٠ ـ النابغة الذبياني: ديوان النابغة الذبياني، دار صادر، لا تاريخ.

٣ ـ الكتب المعرّبة:

١ ـ بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب: منير أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط١٠ ، ١٩٨٤ .

٢ ـ بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي، مجموعة معربين، دار المعارف، مختلف الطبعات بحسب الأجزاء.

٣ ـ غريمال، بيار: الميثولوجيا اليونانية، تعريب: هنري زغيب، منشورات عويدات، ط١ ، ١٩٨٢ .

٤ ـ كونتنو، جورج: المدنيات القديمة في الشرق الأقصى، تعريب: متري شماس، سلسلة ماذا أعرف ؟ ـ المنشورات العربية، لا تاريخ.

٥ ـ مرجليوث، د.س: أصول الشعر العربي، تعريب: يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٨١ .

٤ ـ الكتب السماوية:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ التوراة (العهد العتيق).

٥ ـ المجلات (المقالات):

- سقال، ديزيره: أخطاء المؤرخين القدامى، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد ١٢.

٦ - الكتب الأجنبية:

- Alb.Van Den Branden: Histoire de Thamoud, Publication de l'université libanaise, 1966.

فهرس الأبيات الشعرية

ـ الهمزة ـ

ـ آذنتنــا ببينهــا أسمــاءُ رُبّ ثــاو يمــلّ منــه الثــواء (ص ١٤٤
(خفيف ـ الحارث بن حلّزة)

ـ بــزفــوف كــأنهــا هقلــة أم رئــال دويّــة سقفــاء (ص ١٧
(خفيف ـ الحارث بن حلّزة)

ـ الباء ـ

ـ إذا ما غزوا بالجيش حلّق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب (ص ١١٤
(طويل ـ النابغة الذبياني)

ـ أقفـر مـن أهلـه ملحـوب فـالقطّبيّـات فـالـذنـوب (ص ١٤٤
(مخلع البسيط ـ عبيد بن الأبرص)

ـ إنَّ جنبـي علـى الفـراش لَنَـابٍ كتجـافـي الأَسِرّ فـوق الظـراب (ص ١٣٠
(خفيف ـ سلمة بن الحارث)

ـ وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها كسرى وصدّت صدودا عن أبي كرب
(ص ١٢٤

(بسيط ـ أبو تمام)

ـ ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قِراع الكتائب (ص ١١٢
(طويل ـ النابغة الذبياني)

ـ التاء ـ

ـ وانــي أنـــا القييـــل اليشـــرح حصنـــك غمـــدان بمبهـــت (ص ١٨٥
(مكسور الوزن ـ أليشرح)

ـ الدال ـ

ـ إذا القوم قالوا: من فتى ؟ خلت أنني عنيت، فلم أكسل ولم أتبلّدِ (ص ٧٢
(طويل ـ طرفة بن العبد)

ـ أرى العيش كنزا ناقصا كلّ ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد (ص ٧١
(طويل ـ طرفة بن العبد)

ـ أقفـــر مـــن أهلـــه عبيـــد فليـــس يبـــدي ولا يعيـــد (ص ١٢٣
(فحلع البسيط ـ عبيد بن الأبرص)

ـ إن الهـوان حمـار القـوم يعـرفـه والحـر ينكـره والـرَسلـة الأُجُدُ (ص ٩٠
(بسيط ـ المتلمس الضبعي)

أنبئـت أنَّ أبـا قـابـوس أوعـدنـي ولا قـرار علـى زأر مـن الأسـد (ص ٢٥
(بسيط ـ النابغة الذبياني)

ـ إنـي امـرؤ مـن عصبـة مشهـورة حشـدٌ لهـم مجـد أشـمّ تليـد (ص ٨٣
(كامل ـ معاوية الكلابي)

ـ لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد (ص ١٧٥
(طويل ـ طرفة بن العبد)

ـ نـدامـاي بيـض كـالنجـوم وقينـة تـروح علينـا بيـن بـرد ومجسـد (ص ١٨٥
(طويل ـ طرفة بن العبد)

ـ واللـه إن مـتّ لمـا ضـرّنـي وإن أعـش مـا عشـت فـي واحـده (ص ١٨٩
(سريع، عبيد بن الابرص)

ـ وكـرّي إذا نـادى المضـاف محنّبـا كسيـد الغضـا، نبّهتـه، المتـورّد (ص ٨٩
(طويل ـ طرفة بن العبد)

ـ وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي (ص ٩٢
(طويل ـ طرفة بن العبد)

ـ يا دار ميةَ بالعلياء فالسندِ أقوت وطال عليها سالف الأبد (ص ١٤٤ ـ ١٧٦
(بسيط ـ النابغة الذبياني)

ـ الراء ـ

ـ أبى القلب أن يهوى السدير وأهله وإن قيل عيش بالسدير غرير (ص ١٢٥
(طويل ـ مجهول)

ـ ألكـاعـب الحسنـاء تـر فُـلُ فـي الـدمقـس وفـي الحـريـر (ص ١٣٩
(مجزوء الكامل ـ المنخل اليشكري)

ـ أماوِيَّ إنَّ المالَ غادٍ ورائحٌ ويبقى من المال الأحاديث والذكر (ص ٨٨
(طويل ـ حاتم الطائي)

ـ إنـي وكـل شـاعـر مـن البشـر شيطـانـة أنثى وشيطـانـي ذكـر (ص ١٣٨
(رجز ـ مجهول)

ـ فـإنّـا للحـم السيـف غيـر نكيـرةٍ ونلحمـه حينـا وليـس بـذي نكـر (ص ٩٨
(طويل ـ دريد بن الصمّة)

ـ فليـت لنـا مكـان الملـك عمـرو رغـوثـا حـول قبتنـا تخـور (ص ١١٨
(وافر ـ طرفة بن العبد)

ـ مـا أرانـا نقـول إلا مُعـارا أو معـادا مـن لفظنـا مكـرورا (ص ١٦٢
(خفيف ـ زهير بن أبي سلمى)

ـ وتـذكـر ربّ الخـورنـق إذ أشـ رَفَ يـومـاً وللهـدى تفكيـرُ (ص ١٢٠
(خفيف ـ عدي بن زيد)

ـ ولا تقبـرونـي إن قبـري محـرّم عليكـم ولكـن أبشـري أمّ عـامـر (ص ١٦٩
(طويل ـ الشنفرى)

ـ وما الفرات إذا جاشت حوالبه في حافيته وفي أوساطه العشر (ص ٩٥
(بسيط ـ الأخطل)

ـ السين ـ

ـ إن شِـرار الملـوك قـد علمـوا طِـرّاً وأدنـاهـمُ مـن الـدنـس (ص ١١٩
(منسرح ـ طرفة بن العبد)

ـ لمـن الـديـارُ عفـونَ بـالحُبْسِ آيـاتُهـا كمهـارق الفـرس (ص ٧ ـ ١٨١
(كامل ـ الحارث ـ حلزة)

ـ العين ـ

ـ إن الشيـاطيـن اتـونـي أربعـة فـي غبـش الليـل وفيهـم زوبعـه (ص ١٣٨
(رجز ـ مجهول)

ـ فإن تزجراني يا ابن عفان انزجر وإن ترعياني أَحْمِ عرضا مُمنّعا (ص
(طويل مجهول)

ـ الفاء ـ

ـ تنكّر بعدي من أميمة صائفُ فَبِرْكٌ فأعلى تولبٍ فالمخالفُ (ص ١٧٨
(طويل ـ أوس بن حجر)

ـ قليل غرار النوم أكبر همّه دم الثأر أو يلقى كميّا مسعّفا (ص ٩
(طويل ـ تأبط شرا)

ـ القاف ـ

ـ إن أنتمُ لم تطلبوا بأخيكمُ فذروا السلاح ووحّشوا بالأبرق (ص
(كامل ـ أم عمرو بنت وقدان)

ـ هاج المنازلَ رحلةُ المشتاقِ دمن وآيات لبثن بواقِ (ص
(كامل ـ سلامة بن جندل)

ـ وخيّرني ذو البؤس في يوم بؤسه خصالا أرى في كلها الموت قد برقْ (ص ١٢٤
(طويل ـ عبيد بن الأبرص)

ـ اللام ـ

ـ أنبئت أنّ رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول (ص ٨٧
(بسيط ـ حسان بن ثابت)

ـ أيجمل ما يؤتى إلى فتيانكم وأنتم رجال فيكم عدد النملِ (ص ٣٤
(طويل ـ عفيرة بن عبّاد: الشموس)

ـ درير كخذروف الوليد أمّره تتابع كفّيه بخطّ موصَّل (ص ١٧
(طويل ـ امرؤ القيس)

ـ فقا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل (ص ١٥٤
(طويل ـ امرؤ القيس)

ـ قفا نبكِ من مرأى المغارة يا علي وحزن الأماني من جزيرة منيل (ص ١٤٨
(طويل ـ علي الدرويش)

ـ ليـس رسـم علـى الـدفيـن ببـالِ فَلَـوى ذورةٍ فَجَنْبَـيْ أُثـالِ (ص ١٧٤
(خفيف ـ عبيد بن الأبرص)

ـ مـا بكـاء الكبيـر بـالأطـلالِ وسـؤالـي، فهـل تـردّ سـؤالـي (ص ١٧٩
(خفيف ـ الأعشى الأكبر)

ـ مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطّه السيل من علِ (ص ٧٨
(طويل ـ امرؤ القيس)

ـ وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضلِ (ص ٧٧
(طويل ـ امرؤ القيس)

ـ ودّع هريرة إنَّ الركب مرتحلُ وهل تطيق وداعاً أيها الرجل (ص ١٤٤
(بسيط ـ الأعشى الأكبر)

ـ ولي دونكم أهلون: سيد عملّس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل (ص ٩٩
(طويل ـ الشنفرى)

ـ الميم ـ

ـ أتعرف أطلالا ونؤيا مهدّما كحظك في رقّ كتابا منمنما (ص ١٨٦
(طويل ـ حاتم الطائي)

ـ أتينـا أخـا طسـم ليحكـم بيننـا فـأنفـذ ظلمـا فـي هـزيلـة ظـالمـا (ص ٣٣
(طويل ـ مجهول)

ـ أمـن أم أوفـى دمنـة لـم تَكَلَّـمِ بحـومـانـة الـدرّاج فـالمتثلّـم (ص ١٦٩
(طويل ـ زهير بن أبي سلمى)

ـ عوجا على الطلل المحيل لعلّنا نبكي الطلول كما بكى ابن خذام (ص ١٥٤
(كامل ـ امرؤ القيس)

ـ غشيت كليلى بشرق مقاما فهاج لك الرسم منها مقاما (ص ١٨٢
(متقارب ـ بشر بن أبي خازم)

ـ لابنة عجلان بالجوّ رسوم لم يَتَعَفَّيْنَ والعهد قديم (ص ١٨٠
(مخلّع البسيط ـ المرقش الأصغر)

ـ لمن الديار غشيتها بسخام فعمايتين فهضب ذي إقدام (ص ١٢٥
(كامل ـ امرؤ القيس)

ـ ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر تنبو الحوادث عنه وهو ملموم (ص ١٢٩
(بسيط ـ تميم بن مقبل)

ـ هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلم (ص ٧٣
(كامل ـ عنترة بن شداد)

ـ ولقد شفى نفسي واذهب سقمها قيل الفوارس: ويك، عنترة، أقدم (ص ٩١
(كامل ـ عنترة بن شداد)

ـ ومدجّج كره الكماة نزالَهُ لا ممعن هربا ولا مستسلم (ص ٧٣
(كامل ـ عنترة بن شداد)

ـ يمينا لَنِعْمَ السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم (ص ١٠٥
(طويل ـ زهير بن أبي سلمى)

ـ النون ـ

ـ أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبّركَ اليقينا (ص ٧٦
(وافر ـ عمرو بن كلثوم)

ـ ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا (ص ٦٨
(وافر ـ عمرو بن كلثوم)

ـ ألا هبّي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا (ص ٩٢
(وافر ـ عمرو بن كلثوم)

ـ إني وأن كنت صغير السن (ص (مشطور الرجز ـ مجهول)
ـ لمن الدار أقفرت بمعانِ بين أعلى اليرموك والصمّانِ (ص ١٣٨
(خفيف ـ حسان بن ثابت)

ـ ملأنا البر حتى ضاق عنا، وظهر البحر نملأه سفينا (ص ٧٨
(وافر ـ عمرو بن كلثوم)

ـ وقد هرّت كلاب الحيّ منا وشذّبنا قتادة مَن يلينا (ص ١٣٨
(وافر ـ عمرو بن كلثوم)

ـ الهاء ـ

إذا ما ترعرع فينا الغلا مُ فليس يُقال له: مَنْ هُوَهْ (ص ١٣٩
(متقارب ـ مجهول)

ـ عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبّد غولها فرجامها (ص ١٦٤
(كامل ـ لبيد بن ربيعة)

ـ ومستنبح يخشى القواء ودونه من الليل بابا ظلمة وستورها (ص ٨٨
(طويل ـ عوف بن الأحوص)

فهرس الآيات القرآنية

صف وإخراج دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت لبنان هاتف: ٨١٧٦٢٩ ٣٠٨٧٨٠ فاكس: ٨١٧٦٢٩

دار الصداقة العربية
بيروت